فيورباخ

أصلُ الدّين

دراسة وترجمة :

د. أحمد عبد الحليم عطية



أصل الدين

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1411هـ - 1991م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف ٩٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص - ب ٦٣١١ ١١٣ تلكس ١٤ ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

فيورباخ

فيورباخ

أصل الدين

دراسة وترجمة :

د. أحمد عبد الحليم عطية

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

إهداء

إلى صاحب الحدس الفيورباخي الدكتور حسن حنفي .
أهدي كتابي هذا من خلالك إلى جيل جديد يريد أن يجد نفسه بتجاوز فيورباخ .

أحمد عبد الحليم عطية

كلمة أولية

قدمت إلى المكتبة العربية دراسة عن فلسفة فيورباخ ، وأعلنت عن اهتمامي بتقديم نصوص هذا الفيلسوف ـ الذي اشتعل، وأشعل حماس معاصريه ولاحقيه ـ إلى العربية، فربما ينقلنا نهر النار من القوة إلى الفعل بلغة واصطلاحات أرسطو كما نقل الفكر المعاصر من فلسفة هيجل إلى فلسفة المستقبل . وتلك مهمة جيلنا بأكمله مهمة التحول والانتقال مما نحن فيه إلى ما نصبو إليه من اللغة والتفكير القديم إلى لغة وتفكير حديث ، إلى لغة وفكر إنساني يستجيب لمتطلبات الإنسان .

وقد شرعت في تقديم هذه النصوص الفيورباخية في إطار تقديم فيورباخ إلى العربية فمن حق فيلسوف المستقبل أن يجد مكاناً في ثقافتنا التي ما زالت تحيا على فلسفة القدماء . لقد اجتهد القدماء في نقل وترجمة الفلسفة اليونانية ونصوص الفلاسفة اليونان منذ عصر الترجمة الاول وقدم ابن رشد فلسفة أرسطو ، كما قدم عثمان أمين فلسفة ديكارت وأفاض رائد العقلانية الفيلسوف والشارح الاعظم في تقديم وتفسير كتب المعلم الأول . ونحن بحاجة شديدة ان نفعل ما فعله ابن رشد مع كبار فلاسفة العصر حتى لا نتخلف عن القدماء .

وأتمنى أن أستطيع في اللاحق تقديم فيورباخ وكتاباته : « مبادىء

فلسفة المستقبل » ، « نقد فلسفة هيجل » ، « جوهر المسيحية » ، « جوهر الايمان لدى لوثر » وكتبه الاخرى المختلفة بنفس طريقة الشرح الكبير لابن رشد أو اقرأ فلسفة فيورباخ على ضوء ثقافتنا المعاصرة ، أي نتاج الفكر والمدارس الفلسفية الحالية لعلنا نستطيع أن نقرأ به من خلاله واقعنا المعاصر ، وبعبارة أخرى أن نتجاوز بتقديمه الى العربية مسألة إضافة فلسفة إلى الركام الهائل من المذاهب والفلسفات التي عرفناها ونقلناها إلى أن تكون الفلسفة فهماً ورؤية وقراءة للواقع ومشكلاته وتعاملاً مباشراً معه. إن واقعنا المليء بالمشكلات لا زال في حاجة شديدة الى التحليل العقلي العلمي فهل يمكن أن تساعدنا الفلسفات العقلية النقدية التي لا تأبه بما يضفيه البعض من تقديس على بعض مظاهر حياتنا فنرى حقيقة المقدس ، والمقدس الحقيقي ، هذا ما حاول فيورباخ أن يفعله وما طالب بأن نفعله جميعاً ، أن نصل عبر « اصلاح الفلسفة إلى فلسفة المستقبل » أي فلسفة الإنسان ، الإنسان المتحرر من كل زيف . فهل نفعل ؟

القاهرة 1990

I

جوهر الدين عند فيورباخ

اهتمام فيورباخ بالدين

يظهر الدين عند فيورباخ محوراً أساسياً يمثل صلب كتاباته جميعها ، فهي كما يخبرنـا في أولى محاضرات « جـوهر الـدين » : « تهدف إلى دراسة الدين واللاهوت وما يتصل بهما »، ويضيف «لقد كان شغلي دائماً وقبل كل شيء أن أنير المناطق المظلمة للدين بمصابيح العلم حتى يمكن للإنسان أن لا يقع ضحية للقوى المعادية التي تستفيد من غمـوض الدين « لتقهر الجنس البشري »[1] فهو يهدف كما يخبرنا أنجلز لا إلى محو الدين أو إلغائه ، بل إلى الوصول به إلى حالة الكمال ، حيث يعتقد أن الفلسفة نفسها يجب أن تدخل حظيرة الدين وأن تجعله محوراً لها . فالدين ما زال قائماً باعتباره وظيفة أبدية للروح الإنسانية . ومن هنا فليس لنا أن نتوقع أن تتنازل الفلسفة يوماً عن حقها في بحث المشكلات الدينية الأساسية وحلها . تلك المشكلات التي يطالب اللاهوت باحتكارها . وكما بين برديائيف N.Berdyaev فإن لليقظات الفلسفية دائماً مصدراً دينياً . ويميـل بردیـائيف إلى الاعتقاد أن «الفلسفة الحديثـة عـامـة ،

(1) Feuerbach: lecture of essence of Religion, trans by R.Manheim, Harper & Row, New York 1967, p. 5.

والفلسفة الالمانية خاصة أشد مسيحية في جوهرها من فلسفة العصر الوسيط بسبب موضوعاتها الرئيسية ، وطبيعة تفكيرها . . . لقد نفذت المسيحية إلى ماهية الفكر نفسه في فجر العصور الحديثة »[2] .

ويمكن تتبع اهتمامات فيورباخ الدينية منذ البداية ، حيث كان الدين واللاهوت هما طريقاه إلى الفلسفة . ويمكن قبول تمييز فيورباخ بين الدين واللاهوت وتقبله للاول ورفضه للثاني كما بيّن كرنو M. Cherno بقوله : « بالرغم من معارضة فيورباخ لما يتضمنه اللاهوت وبالاضافة إلى شعوره بأنه خطر على التفتح البشري والرفاهية الإنسانية ، فإنه أشار إلى تعاطف ملحوظ لوجهة النظر الدينية و«جوهر المسيحية » أوضح دليل على ذلك »[3] .

لقد بدأ فيورباخ دراسته سنة 1823 في هيدلبرج متلمذاً على يد كارل دووب Doub وهـ .ج . بولس H.G.Paulus الذي حاضر عن تاريخ الكنيسة وحاول عقلنة اللاهوت إلا أن فيورباخ لم يهتم بهذه المحاضرات الأخيرة ونقدها باعتبارها سفسطة وتوقف عن حضورها . والاستاذ الذي أثر فيه أكثر من دووب الذي كان يحضر عن العقائد . فقد كان ممثلاً للاهوت التأملي متأثراً بهيجل وبلاهوتي برلين وكان دووب حافزاً له للذهاب إلى برلين رغم الصعوبات الكبيرة وذلك للاستزادة من علم هيجل ومحاضرات شليرماخر ومارهنك Marheinek »[4] .

(2) N. Berdyaev : The Russian Revelution, the Uni. of Michigan press, 1961 P.p. 11- 12

(3) M. Cherno:his Introduction to the Essence of faith According to Luther, Harper & Row publishers, New York 1967, p. 12.

(4) K. Löwth : From Hegel to Nietzsche, London Constable 1965, p. 69, and =

وكانت كتاباته كلها تأكيداً لاهتماماته الدينية التي لازمته طوال حياته الفكرية التي تظهر في أول عمل له « تأملات حول الموت والخلود » وهو العمل الذي تسبب في حرمانه من أي منصب أكاديمي وخلق له شهرة سيئة وجعل البعض يعتقدون خطأ بأنه ضد الدين . ويؤكد بارت K. Barth (1886-1968) قضايا ثلاث هامة بخصوص موقف فيورباخ من الدين :

1 ـ إنه لا يوجد أحد من الفلاسفة المحدثين قد شغل نفسه بمشكلة اللاهوت مثلما فعل فيورباخ ، الذي أكد أنه في كل مؤلفاته يهدف إلى غاية واحدة وموضوع واحد وهو الدين .

2 ـ إن اهتماماته الدينية تضعه في مرتبة أعلى من معظم الفلاسفة المحدثين كما يتضح من كتاباته عن الانجيل وعن رعاة الكنيسة وخاصة عن مارتن لوثر .

3 ـ لم يتعمق أحد من فلاسفة عصره في الوضع الحالي للدين وبنفس الفاعلية كما تعمق فيه فيورباخ . فهو ضمن القلة الذين تحدثوا أو كتبوا عن الدين بأسلوب راقٍ[5] .

لقد أمكن فيلسوف الإنسان وصاحب الانثروبولوجيا الفلسفية أن يؤكد أن فلسفته كلها فلسفة دين ، وذلك بالمعنى العام لكلمة « دين » والتي تعني الاهتمام بالمصير الإنساني ، ومن وجهة النظر ذاتها فإن

= Wortofsky: Feuerbach, Cambridge Uni. Press 1982, p. XVII.

(5) K. Barth: The Introduction to the Essence of Christianity, Harper & Row publishers, New York , London 1957, p. X.

فيورباخ يشن انتقاداً دائماً ومركزاً على ما عده ضلالاً للعقيدة والذي يعني ضلال اللاهوت بالمعنى المحدد والدقيق للكلمة فلم ينشغل أحد من معاصريه بدرجة مكثفة ودقيقة بهذه القضية مثله ، وهو كما يقول فوجل H.Vogel : « كان في مناقشته للاهوت أكثر لاهوتية من اللاهوتيين أنفسهم »(6) .

ويمكن أن يتلخص الفهم الاساسي للدين عند فيورباخ من أن « الانثروبولوجي هو سر [حقيقة] اللاهوت » ، أي أن جوهر وحقيقة الدين ومعناه الباطني العميق هو الجوهر الإنساني . وهذا مضمون ما يطلق عليه « لوفيت » « البديهية الكلية » Universal axiom عند فيورباخ . «فالدين له مضمون خاص في ذاته ، فمعرفة الله هي معرفة الإنسان بذاته ، هي المعرفة التي لم تع ذاتها بعد فالدين هو الوعي الأول وغير المباشر للإنسان ، أي الوسيلة التي يتخذها الموجود البشري في البحث عن نفسه ، يحول الإنسان جوهره من البداية إلى نقطة خارجة عنه قبل أن يعثر على هذا الجوهر داخل ذاته . إن الدين - أو على الأقل المسيحية - هو سلوك الإنسان تجاه ذاته [تجاه جوهره] ، هذا السلوك يبدو وكأنه موجه صوب جوهر آخر خارجه »(7) . إن الجوهر الآخر هذا إنما هو الجوهر الإنساني ، أو بعبارة أخرى جوهر الإنسان منفصلاً عن حدوده الفردية ، أي منفصلاً عن الوجود الإنساني ، المادي الذي ينظر إليه بالتبجيل كجوهر فردي مميز عمّن يراه ، ومن ثم

---

(6) H. Vogel: The Introduction to the principles of the philosophy of the Future, Opolis Babls Merrill 1966, p. VIII.

(7) K. Löwth, p. 333

فإن كل صفات الجوهر الالهي هي صفات جوهر الإنسـان في أقصى درجات كمالها . إن الروح الالهية التي ندركها أو نعتقد فيها هي نفسها الروح المدركة ، لذا فإننا نقرأ في أحد أعمال هيجل ذلك النص الذي يستشهد به لوفيث : « إن تطور الدين يرجع إلى أن الإنسان ينكر على الله ما يهبه لنفسه ، وهذا يتضح في البروتستانتية التي تعبر عن « أنسنة الاله » ، « إن « الله ـ الإنسان » أو « الاله الإنساني » ، أي « المسيح » هو وحده له البروتستانتية التي لم تعد تهتم بجوهر الله لذاته وإنما تهتم بجوهر الله بالنسبة للإنسان ، ولهذا السبب فإنـه ليس لديهـا الرغبـة الموجودة في الكاثوليكية . كما أن البروتستانتية التي لم تعد لاهوتاً ولم تعد مسيحية قد أصبحت ديناً إنسانياً »[8] .

وعلى ذلك فإنه يمكن لنا أن نبدأ ببيان كتابات فيورباخ عن الدين وتطورها وتعريفه للدين ، كما ظهر في كتبه المختلفة خاصة « جـوهر الدين » . إلا أن من الافضل الاشارة إلى فلسفة الدين الهيجلية التي قد تلقي الضوء وتساعـدنا في فهـم التفسـير الانثروبـولوجي للدين عنـد فيورباخ .

الجذور الهيجلية للدين الإنساني

يعد الدين بمعناه الإنساني الذي يمثل المقصد من كتابات فيورباخ قمة الوعي بالطبيعة والماهية الجوهرية للإنسان . والـدين بهذا المعنى

---

(8) Ibid., p. 333

يمكن أن نلتمس جذوره في بعض شذرات هيجل المبكرة . ومن الطبيعي أن نعرض هنا للدين الذي يمثل جوهر الإنسان ونتبين آراء فيورباخ المختلفة فيه وتطورها ، وكذلك التعريفات المختلفة له ، وطبيعته ومصدره . ومن ثم فإن البدء بشذرات هيجل يتيح لنا التوصل بدقة إلى مصدر جهود فيورباخ والتعرف بالتالي على ما قدمه ، وفي الوقت نفسه يمكنا من الحديث عن الدين ، الذي لا يمثل فقط جزءاً أساسياً من حياتنا بل أهم عنصر يهيمن على مجتمعاتنا العربية وذلك بدلاً من موقفنا الذي يتلخص في تخوفنا من البحث العلمي في الدين ، أو الذي يظهر على لسان القلة التي يسمح لها بالبحث فيه في صورة عقائد دوجماطيقية ـ أو تفسيرات لغوية يحتكرها من يدعون أنهم وحدهم أهل لذلك . وهكذا عشنا مع الدين دون تعمق لماهيته ، عشنا على المستوى اللفظي فيه ـ وكأن الحديث عن الدين هو التدين ـ ومن هنا كانت أهمية البحث عن حقيقة ماهية الدين عند فيورباخ في هذه الدراسة .

يرى هيجل«أنه لا يجب أن يقتصر الدين على العقائد الجامدة، ولا يجوز تعلمه من الكتب ، ولا يجب أن يكون لاهوتياً بل بالاحرى ان يكون قوة حية تزدهر في الحياة الواقعية للشعب ، أي في عاداته وتقاليده وأعماله واحتفالاته . يجب ألا يكون الدين أخروياً [متعلقاً بالآخرة] بل دنيوياً إنسانياً وعليه أن يمجد الفرح والحياة الارضية لا الالم والعذاب وجحيم الحياة الأخرى»[9] . وتنطلق هذه النظرة من تمييز

---

(9) Hegel: Werke, Fruche Schriften, Frankfurt.

نقلاً عن د . محمود رجب : الاغتراب، منشأة المعارف الاسكندريه ١٩٧٨ .

هيجل بين نوعين من الـدين : الدين الموضوعي وهـو اللاهـوت ، باعتباره نسقاً من الحقائق ،والدين الذاتي، وهو الجانب الحي ، الذي صار حياة دينية ، وإذا كان اللاهوت مجرد (حرف ميت) فإن الدين الـذاتي هو مـا يستحق فقط أن يطلق عليـه اسم الـدين لأنـه يتعلق « بالقلب » ويتصل بالعواطف والمشاعر ويتحول إلى أفعال وأعمـال. وعندما يتحدث هيجل عن الدين فهو يقصد ذلك الجـانب الذاتي . وهذا المفهوم يعد البداية التي انطلق منها فيورباخ في تفسيره للدين . بل إن الهيجليين الشبـاب قد وجـدوا في هذا الفهم « أنجيـل تأليـه الإنسان » تمجيد رغبتهم الفاوستية في أن يصبح الإنسان الهاً[10] . والواقع أن تـلاميذ هيجـل لم يفعلوا شيئاً سـوى أن دفعوا بـبرنامـج الاستـرداد الذي صاغه هيجـل لاول مرة في الشذرة السابقة إلى أقصى نتائجه[11] . ومن هنا علينا الغوص في أعماق فلسفة الدين الهيجلية .

إلا أن الخوض في فلسفة الدين عند هيجل مغامرة صعبة يضاعف من صعوبتها عدم الاتفاق حول معناها واختلاف الشراح حول تحديد مفهـوم الدين . وبينما يرى ميـور Mure أن هيجل يقـدم لنا نـظرة « صوفية » وان المشكلة التي تواجهه هي مشكلة وحدة الإنسان والله وهي الوحدة التي نادى بها كل من: يعقوب بوهمة والسيد أيكهـارت الذي قال : « العين التي يراني بها الله هي العين التي أراه بها ، وإن عيننا واحدة ، وإذا لم يوجد الله فإنني سوف لا أوجد ، وإذا لم أوجد فلن يـوجـد الله » . ومقـابـل هــذا التفسـير فـإن جـان هيبــوليت

---

(10) جارودي : كارل ماركس، جورج طرابيشي،دار الآداب بيروت ط 2 ، ص 22 .
(11) د . محمود رجب : ص 125 .

J.Hyppolite يرفض القول أن هيجل كان صوفياً لأن الروح الكلي لا يتجلى في الافراد بل في الشعوب ، ويرى أنه لا يقدم لنا كذلك نظرة انثروبولوجية لاهوتية . وهذا ما يقول به فندلي Findly أيضاً ، وعلى العكس من ذلك فإننا نجد كوجيف وجارودي يقدمان تأويلاً إنسانياً خالصاً يخلص إلى أن الموضوع الحقيقي للفكر الديني عند هيجل هو الإنسان نفسه . يقول جارودي في كتابه La pensée de Hegel « فكر هيجل » : « إن الله من وجهة نظر الروح الذاتي لا يمكن أن يكون متعالياً خارج الوعي الإنساني ، إنه ليس موجوداً وليس حياً إلا فيه »[12] .

ورغم التباين الشديد بين وجهات النظر هذه ، إلا أن قراءة الفصول التي خصصها هيجل عن الروح الموضوعي ، والروح المغترب عن ذاته في الفينومينولوجيا والكتابات اللاهوتية المبكرة شذرة توبنجن 1794-1796 تؤكد الاساس الذاتي الإنساني في فهم هيجل للدين[13] .

الدين عند هيجل أعلى صورة من صور الوعي بالذات[14]. وهو من عوامل تأصيل الإنسان وتثبيته على الارض لأن الدين مقره « القلب » رمز كل ما هو حي عند هيجل ، وتحويل الدين إلى لاهوت جامد يعني تحول بصر الإنسان عن الارض إلى السماء حيث عالم « الماوراء » بحيث يصبح عاملاً من عوامل اغتراب الإنسان وشقائه . لقد ظهر هذا الاغتراب بشكل واضح في صفحتين بقيتا مما كتبه هيجل وذلك في

(12) جارودي : فكر هيجل ، الياس مرقص دار الحقيقة بيروت د . ت ص 234 .
(13) هيجل : حياة يسوع ، جرجس يعقوب دار التنوير بيروت 1984 .
(14) د . زكريا ابراهيم : هيجل ، مكتبة مصر القاهرة 1970 ص 35

قوله : « إن كل ما هو جميل وسام في الطبيعة البشرية فقد قام هؤلاء المسيحيون البرجوازيون الضعفاء بنقله بأنفسهم خارج أنفسهم على ذلك الفرد الغريب in das fremde individum ولم يستبقوا لانفسهم سوى كل ما هو حقير ودنيء فيهم ، وما قد انتزعه المسيحيون من أنفسهم وأسقطوه على شخص المسيح ، بدأنا نفهم انه عملنا وملكيتنا Eigentum تنتمي الينا . وعلى ذلك فمن الطبيعي أن يرى هيجل أن قهر هذا النوع من الاغتراب لن يتم إلا باستعادة الإنسان لصفاته وعلى الخصوص الحرية وامتلاك نفسه من جديد ولذلك قال فيما بعد : ما على جيلنا إلا أن يضطلع بمهمة جمع الكنوز التي بعثرها أسلافنا لحساب السماء»[15] .

وفي عام 1795 ألف هيجل « حياة المسيح » تناول فيه سيرة المسيح تناولاً عقلياً علمياً استبعد فيه المعجزات التي روتها الاناجيل عنه أي أنه استبعد الجانب الالهي من المسيح ، والذي يهمنا هنا هو ما ذهب اليه هيجل من أن أتباع المسيح قد حولوا دعوته من الايمان بالعقل إلى الايمان بالمسيح ، وهنا يتمثل الشقاء والاغتراب ، أي نقل الصفات السامية في الانسان إلى فرد آخر هو المسيح ، لقد ألهوا سيدهم المسيح وحولوه إلى شرط للخلاص[16] وإذا كان في شذرة 1794 قد تم نقل كل ما هو سام في الطبيعة الإنسانية إلى المسيح فإننا في شذرة 1796 نرى أن الموجود الآخر الذي ينقل اليه الإنسان صفاته أصبح هو الله بدلاً من المسيح . وإلى هذه النقطة وجه الهيجليون الأوائل تفكيرهم كما يقول

(15) د . محمود رجب ص 121 .
(16) نفس المصدر ص 127-136 .

جان هيبوليت [17] .

وقد حاول البعض التقريب بين هيجل وفيورباخ في هذه النقـطة حيث حاول عـدد منهم إنطاق هيجل بعبارات قالها فيورباخ فيما بعد ، فقد جعل آخرون من فيورباخ امتداداً أنثروبولوجياً للدين الذاتي عند هيجل . ففي الفصل الخامس من كتابه عن « هيجل » يتحدث زكريا ابراهيم عن « الروح الموضوعي » مبيناً التشابه بين نصوص هيجل في نقد الدين وما كتبه فيورباخ في « جوهر المسيحية » فحين يقول الأول : « إن الدين هو أعلى صورة من صور التعبير عن الوعي الذاتي » نجد الآخر يقول : « أن الديانة المسيحية ليست إلا الـوعي الذي تحصله البشرية ذاتها من حيث هي جنس عام » وحين يقرر هيجل أن الايمان الديني « وعي نائم » مقابل فلسفة التنوير باعتبارها « وعياً مستيقظاً » تقابلنا عبارة فيورباخ « أن الدين هو حلم العقل البشري » وقول هيجل في كتابات الشباب : « ان الطبيعة البشرية لا تكاد تختلف عن الطبيعة الالهية ، وأن فكرة الانسان عن الله ليست إلا مرآة تعكس لنا فكرته عن نفسه » كل هذا يجعل بعض مؤرخي الفلسفة يقربون بين تصور هيجل لله من تصور فيورباخ للإنسان باعتباره مركز الدين[18] .

وبالرغم من أن ما سبق يعد تفسيراً من تفسيرات عديدة ، إلا أننا مع ذلك لا نستطيع القول أن هيجل أقام توحيداً مطلقاً بين « الله » و« الإنسان » أو بين « اللامتناهي » و« المتناهي » على طريقة فيورباخ . فالميتافيزيقا الهيجلية قد بقيت مغايرة للانثروبولوجيـا الفلسفية ، ففي

(17) جان هيبوليت : دراسات في هيجل وماركس ـ جورج صدقي سوريا 1971 ص 123 .

(18) د . زكريا ابراهيم ص 356 .

حين ظل هيجل ينظر إلى « صلة الله بالإنسان » على أنها المشكلة الاساسية في الدين فإننا نجد لدى فيورباخ محاولة أخرى تقوم على رد الروح المطلق نفسه إلى الروح البشرية دون اهتمام باستبقاء عنصر اللانهائية باعتبارها حقيقة روحية مطلقة أي أن فكرة هيجل عن الله بقيت مغايرة لفكرة فيورباخ عنه خصوصاً وان نظرته للدين ظلت نظرة مثالية تستند إلى ميتافيزيقا نظرية ، لا نظرية مادية ترتكز على أنثربولوجيا اجتماعية ومن هنا فإن قول هيجل بأن الطبيعة البشرية لا تكاد تختلف عن الطبيعة الالهية لا يساوي مطلقاً قول فيورباخ « إن الإنسان حين يتحدث عن الله فإنه في الحقيقة لا يتحدث إلا عن نفسه »[19] . ومن هنا فإن هيجل لا يقدم انثربولوجية لاهوتية مثل فيورباخ لأنه يعتقد أنه إذا كان الله يتجلى لذاته في تاريخ الإنسانية فإن الإنسان لا يؤثر في هذا التجلي وفي هذا الوعي : « اننا لا يمكن أن نعتبر نقد هيجل للدين مماثلاً لنقد فيورباخ ، صحيح أنه يقرر مثل فيورباخ أن الإنسان إذ يعتقد أنه يتكلم عن الله إنما يتكلم عن نفسه ولكنه لا يعد الدين انثربولوجيا كما يفعل فيورباخ بل ميتافيزيقا تأملية نظرية »[20] .

ما زال هيجل ينتمي إلى العهد القديم في الفلسفة لأن فلسفته ما زالت مبنية على اللاهوت ففلسفته الدينية هي المحاولة العظمى الأخيرة لازالة الغموض عن الصراع بين المسيحية والوثنية ، لقد أخفقت

---

(19) د . نازلي اسماعيل : هيجل ، الشعب والتاريخ دار المعارف بمصر ص 147 ، وجارودي فكر هيجل ص 234 ، د . زكريا ابراهيم : هيجل ص 357 .

(20) جارودي : فكر هيجل ص 234 وما بعدها .

الهيجلية في نفي المسيحية وعلينا كما يقول فيورباخ «أن نكمل هذا الانكار الواعي للمسيحية ليكون ذلك بداية عصر جديد فإن ذلك يظهر الحاجة إلى فلسفة لا تمت للمسيحية بصلة ، بل تعد ديناً في ذاتها »[21] . إن الفكر الفلسفي يعتمد على حالة الإنسان وعلى ظروف عامة وعلى التأويل الفلسفي لهذه الحال ويمكن لكليهما أن يبتعد عن الهيجلية، لكن إذا ابتعدنا عن بورجوازية هيجل وعن العالم البروتستانتي فإن الفكر الفلسفي يستطيع أن يتمسك بحريته الدينية كما ظهر ذلك عند اليسار الهيجلي وفيورباخ[22] ومهمتنا هنا هي بيان مفهوم الدين عند فيورباخ . وتطور تفكيره الديني عبر كتاباته الدينية المختلفة لبيان تفسيره الانثربولوجي للدين .

مراحل تفكير فيورباخ في الدين

لا تهدف هذه الفقرة بيان كتابات فيورباخ الدينية وترتيبها ترتيباً تاريخياً بل إلى محاولة رؤية ورصد أهم المفاهيم التي ظهرت في مراحل تطور فكر فيورباخ الديني . وإذا كان البعض قد حدد هذه المراحل في مرحلتين .زمالفن كرينو[23]) فإننا يمكن أن نلمح أربعة مفاهيم أساسية

(21) Feuerbach : The Necessity of the Reform of philosophy in the Fury Brook, Selected of Feuerbach Anchor Books, New York 1972, p. 147.

(22) Emil Fackenheim ,The Religious Dimension in Hegel's Thought, Bostor press, Boston 1967, pp. 339- 340.

(23) يقسم مالفن كرينو في مقدمة ترجمته «جوهر الايمان لدى لوثر» مراحل تفكير فيورباخ الديني الى مرحلتين : الأولى « جوهر المسيحية » والثانية « جوهر الدين » ويأتي « جوهر الايمان » ليكون تطويراً للاول وتمهيداً للثانية .

للدين تمثل أربع مراحل متتالية تعبر عن فهم فيورباخ لماهية الدين الإنساني . وقد تمثل مفهوم فيورباخ الأول للدين في « جوهر المسيحية » حيث قدم تصوراً للدين في نطاق الديانة المسيحية اتبعه بـ « جوهر الايمان عند مارتن لوثر » الذي يعد مرحلة انتقالية بين جوهر المسيحية وكتابيه « جوهر الدين » ، « محاضرات في جوهر الدين » اللذين يمثلان المرحلة الثالثة في تفكيره . بينما المرحلة الرابعة والأخيرة نجدها في كتابه Theogony الذي كثيراً ما يغفل عنه الباحثون عند الحديث عن الدين عند فيورباخ . ويمكن بيان هذه المراحل في تفكير فيورباخ كما يلي :

1 ـ المرحلة الأولى : « جوهر المسيحية »

في هذه المرحلة تصور فيورباخ الله على أنه نتيجة لتجريد الإنسان من سمات الطبيعة البشرية خاصة ، ومن مميزات الجنس البشري ككل ، وذلك بجعلها كينونة حقيقية ، فقد حاول البشر ـ كما يقول ـ تحقيق مثلهم العليا وصفات الكمال (فيهم) ، ونظراً لعدم تحققها « كاملة » في كائنات بشرية محددة ، ورغبة في تجسيد هذه المثل خلق البشر الله متناسين أن هذه الصفات والمثل (التي تكون صورة الله عند البشر) وان كانت بعيدة عن البشر كأفراد وغير متحققة فيهم ، إلا أنها متحققة في الجنس البشري ككل وليست في كائن منفصل وبعيد عن البشر أنفسهم .

نجد هذا التصور في أول إبداعاته « تأملات حول الموت والخلود » وفيه عرض فكرة «المرآة» ، أي الله باعتباره مرآة Spiegel تنعكس فيها صفات النوع البشري ، يقول فيورباخ : « حتى لو لم تكن عندك أية فكرة عن الله فأنت لا تجهل أنه الوجود بلا حدود ، الوجود اللانهائي في

الزمان والمكان وبالتالي لا تجهل أنه لكي نتصور الله ذهنياً يجب أن تنفى كل التحديدات وكل القيود ، وكل ما يحيط بنا من حدود تحد الاشياء المتناهية »[24] ويمكن أن نتابع نفس الفكرة مع فيورباخ حين يضيف : « لو لم تعتبروا الله الوجود اللانهائي إنه شخصية ، أي لو لم تروا فيه شيئاً آخر غير حرية الارادة ، الوعي بالذات فأنتم تفكرون في الله بشكل سطحي . هذا الاله الشخصي لم يكن شيئاً آخر سوى النموذج المادي الذي هو في الحقيقة انعكاس لذاتية الإنسان أو للذات الإنسانية ، فالله كالسطح الأملس الذي يعكس الذات الإنسانية للذات الإنسانية »[25] .

ويبين برديائيف في كتابه « الالهي والانساني » The Divine and the Human أن فكرة فيورباخ بأن الانسان ينسب إلى الله طبيعته السامية ليست جدلاً يهدف إلى انكار الله بل على العكس تهدف إلى غير ذلك تماماً فهي توضح أن هناك توافقاً واكتمالاً بين الله والإنسان ذي الروح الحرة[26] فالإنسان قد خلق إلهاً لنفسه على صورته يحمل ملامحه تماماً ، ووضعه في عالم متسام كطبيعة سامية له ، وهذه الطبيعة يجب أن ترجع إليه فالاعتقاد في الله كنتيجة ضعف وفقر الإنسان ، لأنه لو كان الإنسان قوياً غنياً ما كان يحتاج إلى الله ولذا فإن سر الدين هو الانثروبولوجي و« جوهر المسيحية » الذي كتبه فيورباخ تجد فيه أسلوب

(24) Feuerbach: La Mort et l'Immortalité, Au «Qu'est-ce Que la Religion» Nouvelle philosophie Allemande, trad. par Hermann Ewerbeck, Paris, 1850, p. 515.

(25) Ibid., p. 515

(26) N. Berdyaev: The Divine and Human 1948, P. 44.

كتب التصوف ومن هنا فكما أرى «ظــلت طبيعة فيورباخ دينية فتأليهه للإنسان ، هو تأليه للجنس البشري والمجتمع وليس تأليهاً لــلإنسان الفرد والشخصية »[27] .

وعملية اسقاط الصفات الإنسانية على الله هذه هي ما يقصد بها فكرة الاغتراب الديني بأوسع معانيه كما يقول شاخت فإن أفضل تطبيق لـذلك نجـده في « جوهـر المسيحية » و« جـوهر الـدين » حيث نجد فيورباخ معنياً بشكل خاص بإقرار أن مفهوم طبيعة الآلهة لا يعدو أن يكون مفهوماً عن طبيعة الإنسان . ويعتقد فيورباخ أن الإنســان قد خلق الله على صورته الجوهرية ويبدو الاثنان متباعدان عن التماثل لأن هناك تنافراً بين طبيعة الإنسان الفعلية وطبيعته الجـوهريـة أو المثاليـة والأخيرة لا الاولى هي التي تنعكس في فكرة الله .

ولقد أسيء تفسير طبيعة هذا التباين وأصبح ينظر إليه كفارق بين الإنسان الفعلي ، ووجود متميز عنه هو الله ، وعلاوة على ذلك فإن هذا الفارق قد اتخذ سره شيء يتعين احترامه الأمر الذي أدى إلى أن الإنسان لم يجرؤ على التطلع الى الحصول على تلك الصفات التي يعزوها إلى ذلك الوجود الآخر ، إلا أنه في تنازله عن تلك الصفات فإنه ينفي في الحقيقة طبيعته الجوهرية وقد يمكن اختصار هذا الموقف مستخدمين ألفاظ فشته فنقول : «إن الإنسان خلع على الموضوع صفاته الجوهرية في تعارض مع ذاته وبقيامه بذلك فقد تنازل عما هو جوهري بالنسبة له »[28] .

---

(27) Ibid., p. 136.

(28) شاخت : الاغتراب ترجمة كامل يوسف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1980 ص 126-127 .

وقد تعرض فيورباخ بسبب موقفه من اللاهوت في « جوهر المسيحية » إلى الهجوم عليه من مختلف الجبهات : من اللاهوتيين ومن الهجليين الشباب خاصة : باور وشترنر . فقد نشر م .ج . موللر في العدد الأول من « الدراسات والنقد اللاهوتي » 1842 نقداً لجوهر المسيحية من وجهة النظر اللاهوتية . وموللر بصفته هذه لم يتناول جوهر المسيحية بالمناقشة الفلسفية . ومن هنا نجد فيورباخ في مقالته « الرد على لاهوتي » يحاول بشكل موضوعي تناول ، ليس موقف موللر فقط بل موقف اللاهوتيين عامة من كتابه [29] .

إن موللر كلاهوتي يخطىء في فهم فيورباخ الذي يتصف كتابه باتجاه أكثر عمومية اتجاهاً فلسفياً . فهو مرغم باعتباره فيلسوفاً أن يوجه نقده إلى كل الصفات غير اللائقة التي يعطيها الاهوتيين للاله اللاهوتي . فهو يتجاوز معتقداته الشخصية كمؤمن أو ملحد إلى تحليل عناصر المسيحية والتنقيب فيها وورائها وقد بين فيها عنصرين أساسيين هما :

- العنصر الكلي الإنساني وهو الحب والاخوة
- العنصر الفردي الأناني أو اللاهوتي ، عنصر الايمان الذي يكون الغيب والخطأ والزيف ، يكون الظل الخاوي الذي يريد اللاهوت أن يمرره الينا كوجود حقيقي «ففيما يتعلق بالاوهام اللاهوتية فأنا أقوم بمحاربتها بلا استثناء ، ولكنني أبقي على معانيها الإنسانية ومن هنا فأنا لا أساوي بين السيدة العذراء كوجه لاهوتي باعتبارها أم الاله وبينها كصورة إنسانية لمريم العذراء»[30] .

(29) Feuerbach: Reponse A un Theologien pp. 52-63 dans Hermann Ewerbeck.

(30) Ibid., p. 54.

وليس موللر فقط هو الجبهة الوحيدة التي فتحت نيرانها على فيورباخ بل ان باور وشترنر أيضاً قد وجها سهام نقدهما إليه . فالأخير في كتابه « الاوحد وصفاته » ينتقد مفهوم الدين الإنساني كما جاء في « جوهر المسيحية » وما يهمنا هنا هو رد فيورباخ الذي يدين شترنر الذي يبقي على المحمولات والصفات الدينية ، والاوحد L'Unique لا يعطينا ـ فيما يقول فيورباخ ـ سوى تحرر لاهوتي من اللاهوت ومن الدين بينما يتجاوز « جوهر المسيحية » ذلك تجاه الدين الإنساني [31] .

2 ـ المرحلة الثانية : « جوهر الايمان »

تظهر هذه المرحلة في كتابه «جوهر الايمان لدى مارتن لوثر»وتمثل انتقالاً من « جوهر المسيحية » إلى « جوهر الدين » وكان هذا الكتاب عن جوهر الايمان محاولة لكي يقدم لنا فيورباخ دليلاً تسجلياً لحقيقة هذا التعميم من خلال عبارات وأقوال لوثر «حيث يتجه الدين نحو الإنسان ، ويتخذ من سعادة الإنسان هدفاً ومقصداً له »[32] ويعد « جوهر الايمان لدى لوثر » ملحقاً لجوهر المسيحية فهو محاولة لوضع الأفكار الرئيسية له في شكل أكثر تماسكاً . وإذا كانت هذه المرحلة وسابقتها تحاول المصدر الإنساني للدين ، وإن الالهة في النهاية تمثل مشاعر وأفكار الإنسان الداخلية ، وتعد تعبيراً عن أحلامه وأمانيه ،

---

(31) Feuerbach: L'essence du Christianisme dans son rapport a l'Unique et sa propriété, dans Manifestes philosophiques textes choisis, trad. par L. Althusser, press uni., De Frans 1960 p. 221.

(32) Feuerbach: The essence of faith According to Luther, Harper & Row publishers, New York 1967, p.11.

فإننا يمكننا أن نجد لدى سيجموند فرويد امتداداً لهذا الموقف السيكولوجي واستمراراً له، حيث يستخدم « فرويد » التحليل النفسي لتأكيد وتعميق أفكار فيورباخ اوانثربولوجيته الدينية .

وفرويد لم يباشر الدراسة الجدية لاصول الدين النفسية إلا في « الطوطم والتابو » 1911 ، إلا أنه من المفيد القول أن الأسس التحليلية للدين لم تكن وليدة كتاب واحد مفاجئة ، بل تبعثرت من مؤلفات عديدة قبل أن تظهر كاملة ففي دراسته عن « ليوناردو دافنشي » يبين مصدر الاعتقادات الدينية ويبرز أن ثمة علاقة قائمة بين الشعور الديني والعلاقة مع الاب . فالتحليل النفسي يرينا يومياً كيف يفقد الشباب إيمانهم الديني لحظة انهيار السلطة الابوية . إلا أن الحديث عن الدين عند « فرويد » لا يمكن أن يتم دون العودة الى كتابه « مستقبل الوهم » L'Avenir d'une illusion ، حيث يبين « فرويد » ان الافكار الدينية تنبع من نفس الحاجة التي تنبع منها سائر إنجازات الحضارة : ضرورة الدفاع عن النفس ضد تفوق الطبيعة الساحق ، أي « أنسنة الطبيعة » التي تشتق من الحاجة التي تحاصر الإنسان إلى أن يضع حداً لحيرته وضياعه وضائقته أمام قوى الطبيعة المخيفة ، الأمر الذي يتيح له أن يقيم علاقة معها وان يؤثر عليها في خاتمة المطاف . فالإنسان البدائي لا خيار له ، فهو لا يملك طريقة أخرى في التفكير فمن الطبيعي عنده ، بل من شبه الفطري أن يسقط ماهيته الخاصة على العالم الخارجي ، وان ينظر إلى جميع الأحداث التي يلاحظها وكأنها من صنع كائنات مشابهة وذلك هو منهجه الأوحد في الفهم »[33] .

(33) فرويد : مستقبل الوهم ، ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت 1974 ص 28 .

ويظهر الدين هنا أقرب ما يكون إلى اغتراب الصفات الإنسانية التي يخلعها الإنسان على قوى الطبيعة حتى يشعر بتوافق معها أو يستطيع إقامة نوع من العلاقة بينها و بينه . وفي بداية الفقرة السادسة من كتابه يبين « فرويد »: « أن الأفكار الدينية ليست خلاصة التجربة أو النتيجة النهائية للتأمل أو التفكير وإنما هي توهمات ، تحقيق لأقدم رغبات البشرية وأشدها الحاحاً وسر قوتها هو قوة هذه الرغبات »[34] .

وتحديد الدين بأنه أمان قلبية يقرب بين فيورباخ وفرويد : « انه جميل ورائع حقاً أن يكون هناك إله فاطر للكون ذو عناية ، رؤوف ونظام أخلاقي للكون وحياة ثابتة ، لكن من المثير للفضول فعلاً أن يكون هذا كله هو بالتحديد ما يمكننا أن نتمناه لانفسنا » هنا يبدو كأن فيورباخ هو الذي يتحدث . وهذا ما يعترف به « فرويد » بشكل غير مباشر حين يقول : « هل قلت شيئاً غير ما قاله رجال آخرون أهلاً للثقة أكثر مني ، غير أن ما قالوه تم بصورة أكمل وأقوى وأفصح وأبلغ ؟ وأسماء هؤلاء الرجال معروفة لدى الجميع لذا لن أسميهم لأنني لا أريد أن أبدو كمن يضع نفسه في مصاف هؤلاء واعتبر نفسي واحداً منهم وقد اكتفيت ـ وهذا هو الجانب الوحيد من بحثي ـ بأن أضفت الى نقد المتقدمين العظام بعض الأسس السيكولوجية»[35] .

وسواء كان فيورباخ واحداً من هؤلاء العظام الذين سبقوا فرويد وممن كان يقصدهم في عبارته السابقة أم لا ،فمما لا شك فيه أن في نظرية فيورباخ عن الدين أسساً تفسر ملامح النظام الفرويدي

---

(34) المصدر السابق ص 43 .

(35) نفس المصدر ص 49 .

النفسي . إن ملاحظة فيورباخ أن الثيولوجي Theology ما هو الا باثولوجي Pathology ملاحظة ذات أهمية كبيرة ومنها يبدأ العلاج . . . وتجعل فيورباخ محللاً نفسياً سابقاً على فرويد »[36] .

وإذا أردنا بيان مفهوم فيورباخ الإنساني للدين وتوضيح تفسيراته الانثربولوجية القائمة على التحليل السيكولوجي نجد ان الإنسان حين يجسد صفاته البشرية في صورة اله فإنه ينكر على نفسه الاشباع الحقيقي وينغمس بدلاً من ذلك في إشباع خيالي . ذلك أن العقائد الجامدة هي أمان قلبية تحققت والاعتقاد في الله ينبع من ميل الإنسان إلى مقارنة الكائن غير الكامل بالفكرة العامة للكمال الإنساني . ومن هنا فالراهب أو الراهبة اللذان يمتنعان عن التمتع بالجنس يجدان بديلاً لهذا التمتع في العالم المثالي .

ويعتقد فيورباخ أن هناك تشابهاً بين العقيدة الدينية والاحلام « الشعور حلم والعيون مفتوحة ، والدين وأنت في حالة وعي ، فالحلم مفتاح أسرار الدين » . ليس فقط الاحلام هي التي تلقي الضوء على طبيعة الدين ، ذلك لأن « انحرافات المتعصبين من المتدينين ، والمبالغات الدينية للإنسان البدائي تلفت انتباهنا إلى جوهر أكثر الاديان تطوراً وتحضراً »[37] . وهذا ما يقر به « فرويد » كما بينا ، مما جعل هـ . ب . اكتون H.B.Acton في كتابه « وهم العصر The illusion of the

---

(36) د . حسن حنفي : الاغتراب الديني عند فيورباخ ، عالم الفكر الكويتية 1983 ص 43 .

(37) Feuerbach: The Essence of Christianity, Horper & Row publishers, New York 1957 P. 173.

epoch » يقول : « إنه لا يمكن لأي إنسان على معرفة بتفسير فرويد للدين في كتابه مستقبل الوهم إلا أن يتملكه الاعجاب للتشابه الشديد بينه وبين آراء فيورباخ »[38] . وقد استرعت العلاقة بين فيورباخ وفرويد انتباه العديد من الباحثين خاصة في نقدهما للدين ، نذكر من هؤلاء أ . هـ . فيزر A.H.Weser الذي قدم لنا دراسة بعنوان « نقد سيجموند فرويد ولدفيج فيورباخ للدين » في ليبزج 1963[39] .

3 ـ المرحلة الثالثة : جوهر الدين

ويمثل « جوهر الدين » ـ وهو الكتاب الذي نعرض لـه ـ المرحلة الثالثة من تفكير فيورباخ الديني . وقد ركز فيه وكثف وعمق مفهومه عن الدين الذي توسع فيـه بعد ذلك في كتابه « محاضرات في جوهر الدين » التي ألقاها في هيدلبرج (1948-1949) ليشمل العديد من الديانات غير المسيحية ، وإن كانت هذه الديانات تعد عنده ملاحق أو تذييلات للمسيحيـة . فقـد رأى أن المسيحيـة والـديـانـات الـروحيـة Geistesreligioness التي تمثل مرحلة أعلى من التطور الـديني كانت تسبقها فترة من الديانات الطبيعية وعلى ذلك فإنه إذا كان الـدين في المرحلة الأولى والثانية مستمداً من الخصائص البشرية فإنه يقوم على الموضوعات الموجودة في العالم الطبيعي .

---

(38) H.B. Acton: The Illusion of the Epoch, Routledge Kegan Paul,London and Boston 1973, p. 121.

(39) A.H. Weser: S. Freud's Und L.Feuerbach Religionskritik,In Augural-Dissertation, Leipzig 1936.

يتضح ذلك من الفقرات الاولى من «جوهر الدين» فالكائن الذي «يختلف عن الإنسان ويكون مستقلاً عنه والذي ليس له طبيعة بشرية وليست له صفات بشرية ليس شيئاً في الحقيقة سوى الطبيعة»[40] ويوضح ذلك في «محاضرات في جوهر الدين» قائلاً: «لقد اعترضوا على كتابي «جوهر المسيحية» بقولهم ان الإنسان كما بدأ في هذا الكتاب ليس تابعاً لشيء وبهذا أكون قد تابعت في زعمهم أولئك الذين ألهوا الإنسان من قبلي، ولكن الرأي عندي إن الكائن الذي هو شرط مسبق للإنسان إنما هو الطبيعة» ويضيف: «إن كينونة الطبيعة هي بالنسبة لي الكينونة الازلية التي لا أول لها إنها الكائن الأول في الزمان وليس في المرتبة، هي الكائن الاول فيزيقياً وليس أخلاقياً»[41].

ومن هنا فالطبيعة هي الموضوع الاصلي الاول للدين كما يبرهن على ذلك تاريخ كل الديانات والامم. فالتأكيد بأن الدين فطري بالنسبة للإنسان زائف إذا تطابق مع الثيولوجي، ويكون صحيحاً تماماً إذا كان الدين هو الشعور بالتبعية الذي يدرك فيه انه لا يستطيع الوجود بدون كائن آخر مختلف عنه. وإذا فهمنا الدين هكذا فإن هذا الكائن يكون ضرورياً بالنسبة للإنسان كضرورة النور بالنسبة للعين والهواء للرئتين والطعام للمعدة، والدين هو اظهار مفهوم الإنسان لنفسه ولكن علاوة على ذلك فإن الإنسان كائن لا يوجد دون ضوء، دون هواء دون ماء، دون أرض، طعام، إنه باختصار كائن يعتمد على الطبيعة[41].

(40) Feuerbach: The Essence of Religion, New York 1873, p.1.

(41) Ibid., p. 2.

وهذا الاعتماد موجود لدى الحيوان وفي الإنسان طالما انه يتحرك داخل المجال الحيواني وهو اعتماد غير واع لكن بارتفاعه للوعي والتخيل وعند التفكير فيه والاعتراف به يصبح ديناً . لقد تطور تفكير فيورباخ في المرحلتين الاولى والثانية من جهة ، حيث أصبح الدين مستمداً من شعور الإنسان بالتبعية في المراحل الأولى ، وبالاعتماد على الطبيعة في المرحلة الثالثة ولذا يقول في « محاضرات في جوهر الدين » : « الله هو الطبيعة المجردة والطبيعة بالمعنى الحقيقي لا المجازي هي الطبيعة المحسوسة الواقعية التي تظهرها لنا الحواس » . وهذا ما نجده في المحاضرة السادسة : « إن كل الانطباعات التي تنتجها الطبيعة على الإنسان بواسطة الحواس يمكن أن تعتبر بواعث عبادة دينية»[42] .

4 ـ المرحلة الرابعة : الثيوجونيا

وهي المرحلة الأخيرة في تفكير فيورباخ الديني والتي يظهر فيها الارتباط بين الدين والاخلاق . وقد ظهرت هذه المرحلة عندما تطورت الفنون المتحضرة وقلت ضغوط قوى الطبيعة على الإنسان . وفي هذه المرحلة وانطلاقاً من الاسس النفسية للدين ـ كما ظهرت في المراحل السابقة ـ فقد طوّر فيورباخ افتراضاً شعر أنه أكثر ملائمة لتفسير الاوجه المتعددة للتطور الديني ففي كتابه « الثيوجونيا حسب المصادر العبرية الكلاسيكية والمسيحية القديمة » 1857 أشار على سبيل المثال إلى إدراك الإنسان لمثله العليا وإدراكه لاعتماده على كائنات أخرى يمكن أن يكونا معاً نوعاً من الحث على السعادة .

وطبقاً لهذا الرأي فقد ادعى الإنسان ان رغباته يمكن الحصول عليها

(42) Feuerbach, lecture of Essence of Religion., p.22.

ولكي يجعل هذا الافتراض صحيحاً نظر البشر الى الهتهم على أنهم المكملون والضامنون للرغبات البشرية . فنشأة الالهة لا تكمن فيما يرى فيورباخ في اعتماد سلبي على الطبيعة والبشر ، ولكن تكمن في حافز إيجابي يقوم على افتراض أن الرغبات والاماني البشرية تتفق وطبيعة العالم . ويرى أرفون ان فيورباخ نشر كتابه « الثيوجونيا » من أجل ايجاد توافق بين « انسانية » « جوهر المسيحية » و« طبيعية » « جوهر الدين » . حاول فيورباخ أن يعثر في مفهوم الله على العناصر الإنسانية والطبيعية . فالانسان إذ يصطدم بالقدرة الكلية للطبيعة يسقط على الالهة رغبته في الانتصار عليها (أي الطبيعة)[43] .

لم يحقق كتاب « الثيوجونيا » أي نجاح ، فالسرد الوصفي الذي يمتد طوال الكتاب يشعر القارىء بالملل ، ويكتب فيورباخ في رسالة تعود الى 1860 قائلاً : « إنه لمن المثير للدهشة أن نرى إتفاق أصدقائي وأعدائي على تجاهل هذه الدراسة التي تنطلق من أبحاث واسعة . وهذا الكتاب في نظري أبسط كتبي وأكثرها اكتمالاً ونضجاً ، لقد عرضت فيه [في قضايا مباشرة] كل ما كنت عرضته في كتاباتي السابقة على شكل مناقشات فلسفية جدلية »[44] ورغم أن هذا رأي فيورباخ في عمله إلا أن الكثيرين رأوا فيه نذيراً بهبوط سوف تزداد حدته[45] ورغم ذلك فإن فيورباخ كما يعتقد ريردان B.H.Reardon قادر على أن يهب الايمان

(43) هنري ارفون : فيورباخ ترجمة ابراهيم العريس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، 1981 ص 21 .

(44) المرجع السابق ص 22 .

(45) هذا رأي كل من : كامنكا « فلسفة فيورباخ » وانجلز « لدفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » ولينين « الدفاتر الفلسفية » .

لعصر خلا من الايمان . ولهذا يضع فلسفته في تيار « الفكر الديني في القرن التاسع عشر» في كتابه الذي يحمل نفس الاسم . «ففيورباخ ليس مستهزئاً بالدين ، ذلك لأن الجانب الديني للحياة ليس عبثاً وإنما هو المفهوم الاساسي لادراك الإنسان لذاته وذلك لأن موضوع الدين الرئيسي هو الإنسان كما يتضح من تحليل الخبرات الدينية التي تتعدى صور اللاهوت غير المتناسقة فالله انعكاس للإنسان على ذاته »[46] .

ونجد نفس الرأي لدى جون لويس الذي يرى أن « فيورباخ كان رجلاً متديناً إلى أبعد الحدود ، ومن ثم فإن ماديته جاءت مختلفة تماماً عن أي مادية سابقة فهو لا يحقر الدين وإنما يرى في الله اسقاطاً لحالة الإنسان البائسة المحرومة »[47] . وسوف نسوق مثالين متتاليين لبيان موقف فيورباخ من الدين الإنساني بل ولايضاح مثاليته في فهم وتفسير الدين ، أحد هذين المثالين للفيلسوف الوجودي المؤمن نيقولا برديائيف والآخر لأحد مؤسسي الماركسية وهوفردريك أنجلز .

يقول الأول في كتابه « الالهي والبشري » : « ينادي فيورباخ بدين الإنسانية وقد كتب « جوهر المسيحية » بطريقة كتب التصوف وظلت طبيعة تفكيره هي الطبيعة المؤلهة» ويؤكد أن فكرة فيورباخ عن تحويل الثيولوجي إلى انثربولوجي ليس المقصود منها إنكار الله بل تأكيد الإنسان ، وتأكيد فيورباخ أن الإنسان ينسب إلى الله طبيعته السامية لا

---

(46) B.M. Reardon:Religion thought in Nineteenth Century,Cambridge,Uni.. press 1966, p. 83.

(47) جون لويس : المدخل الى الفلسفة ، ترجمة أنور عبد الملك ،، الدار المصرية للكتب القاهرة 1957 ، ص 187.

تهدف إلا الى التوافق والاكتمال بين الله والإنسان ، والإنسان ذي الروح الحرة ذلك الكائن الطبيعي والاجتماعي[48] ؛ ونجد ذلك أيضاً في كتابه « العزلة والمجتمع » الذي يؤكد فيه بردياثيف على الناحية الوجودية في فلسفة فيورباخ لأنه يجعل من الإنسان الفكرة المسيطرة على حياته ويضيف بردياثيف ان «التعرض للإنسان معناه التعرض لله وهذه في نظري المسألة الأساسية »[49] .

تلك شهادة فيلسوف لا يشكك أحد في مسيحيته . ويقدم لنا أنجلز نفس الرأي في كتابه « لدفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » حيث يقول : « إن موقف فيورباخ من الدين واضح وصريح فهو يبقي عليه على العكس من موقفه من اللاهوت. . . إن غاية فيورباخ هي الوصول بالدين إلى أسمى درجات الكمال »[50] . يبقي فيورباخ على الدين الذي يشتق من العلاقة المستندة إلى القلب بين إنسان وآخر ، وهي العلاقة التي ظلت حتى الآن تسعى إلى الكشف عن حقيقتها في إنعكاسات وهمية للحقيقة ، أي في ذلك الانعكاس الوهمي للصفات الإنسانية عن طريق تصور اله واحد وآلهة كثيرة ، ولكنها الآن تجد حقيقتها مباشرة ، ودون أي واسطة في المحبة بين الأنا والانت ، وهكذا نجد فيورباخ يجعل من الحب أسمى أشكال الدين الذي يبشر

(48) N. Berdyaev : The Divine and the Human., p. 32.

(49) بردياثيف : العزلة والمجتمع ترجمة فؤاد كامل ط 1 النهضة المصرية القاهرة 1960 ص 30 .

(50) أنجلز : فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ترجمة راشد البراوي في « التفسير المادي للتاريخ » ، النهضة العربية القاهرة 1947 ص 55 .

به ان لم يكن اسماها جميعاً[51] .

ويرى فيورباخ في مقالتـه « ضرورة اصلاح الفلسفـة » أن «عصور الإنسانية لا تتميز إلا بتغيرات دينية ولا تكون الحركة التاريخية أساسية إلا إذا كانت جذورها متأصلة في قلوب البشر »[52] مع ملاحـظة ان « القلب » عند فيورباخ ليس فقط صورة من صور الدين بل هو جوهر الدين .

(51) الموضوع السابق .

(52) Feuerbach: The Necessity of Reform of philosophy , p. 1

II ـ لدفيج فيورباخ
صورة حياته(*)

كان لدفيج فيورباخ الابن الرابع من خمسة أبناء للعالم القانوني الالماني المشهور انسيلم فون فيورباخ . ولد في 28 يوليه 1804 في لند شوط في بافاريا ، ولا تقدم لنا التغيرات التي جرت في حياته البسيطة أي سمات محسوسة ، ولم يمثل خلال وضعه في الحياة ، أو ميوله ككاتب بارز للجمهور . فقد كانت حياته أساساً حياة فكره ، وكتاباته هي سيرته الحقيقية .

وقد كان فيورباخ في كل مراحل حياته مع روحه الكلي Whole soul وفي شبابه حينما كان طالباً في الجمنيزيوم في أنسباخ كان مسيحياً تقياً ، تقياً بكل طاقة شخصيته وفي حماس تقواه كرس نفسه لدراسة اللاهوت في جامعة هيدلبرج بمحض اختيار إلا أنه لم يجد غذاء مشبعاً لما يشتهيه عقله الثائر غير المستقر ، ولهذا فقد ترك هيدلبرج سنة 1824 إلى برلين وهناك كتب لوالده ما يلي: « لقد هجرت اللاهوت ليس عبثاً أو استهتاراً أو كرهاً ولكن لأنه لا يشبعني ، لا يعطيني ما أحتاج إليه ولا أستطيع الاستغناء عنه . أود أن أضم الطبيعة إلى قلبي ، تلك التي يرتد

(*) بقلم الكسندر لوس Alexander LOOS (مترجم النص الانكليزي) .

عن أعماقها رجال اللاهوت الجبناء ، أود أن أعانق الإنسان ، الإنسان في كماله » ولم يستطع فيورباخ حينئذٍ أن يقاوم القوة التي جذب بها هيجل صغار الطلاب ومع ذلك فقد كان يملك عقلاً مستقلاً جداً ، لدرجة لم يستطع معها أن ينال منه كلام الاستاذ [هيجل] وبالتدريج فإنه لم يحرر نفسه من هيجل فقط ولكنه قرر أيضاً أن يلقي بكل الفلسفة التأملية معاً ، وأن يكرس نفسه كلية إلى العلم الوحيد الصحيح ، وهو علم الطبيعة .

ولكن موت الملك ماكس الأول ملك بافاريا الذي مكنت رعايته السخية انسلم فون فيورباخ من أن يضمن لكل من أبنائه الخمسة الموهوبين تعليماً ليبرالياً حراً ، أحبط هذه النية . وتوقف لدفيج عن الاستمرار في دراسته . وعلى هذا فقد استقر في 1828 كمدرس خاص في جامعة ارلانج Erlangen وحاضر في المنطق والميتافيزيقا ولكنه سرعان ما أدرك أن المدرسية السائدة للجامعة الملكية لم تكن جواً معرفياً ملائماً لعقله المستقل ، وألقى بكل الصلات الرسمية بالمعاهد والمؤسسات وتقاعد في عزلة ريفية في بروكبرج Bruckberg وهي قرية صغيرة قرب إنسباخ حيث استوعبت الطبيعة والعلم كل حماسه المتقد وألهماه بأهم إنجازاته الادبية خلال فترة إقامته لمدة خمسة وعشرين عاماً . وقد قطع هذه الاقامة مرة واحدة بزيارة قصيرة لهيدلبرج سنة 1848 حيث دُعي بواسطة شباب الطلاب ليعطي سلسلة من المحاضرات أمام جمهور مختلط عن ماهية الدين . ويمكن أن نحس المشاعر التي رحب بها فيورباخ من خلال الكلمات التي تنفس بها عندما وضع في أسر الزواج المبارك سنة 1838 بزواجه من أخت زوجة صديق له ، هذا الزواج الذي مهد له

استقراراً هادئاً في بروكبرج يقول : « يمكنني الآن أن أوفر عبقريتي ، والآن يمكنني أن أكرس نفسي بحرية واستقلال ، دون أي اعتبار ، لتطوير كياني الخاص » .

ومن بين كتاباته التي تم نشرها في طبعة تضمّنت عشرة مجلدات يمكننا أن نذكر على وجه الخصوص :

- تاريخ الفلسفة الحديثة : من بيكون إلى اسبينوزا عام 1833 .
- عرض وتطوير ونقد فلسفة ليبنز : 1836 .
- بير بايل 1838 .
- جوهر المسيحية 1841 ، الطبعة الثانية 1843 ، الثالثة 1848 .
- ماهية الدين 1845 .

وهذا الكتاب الأخير الذي يقدم مترجماً للمرة الأولى للقارىء العربي يشكـل القاعدة الاساسية لثلاثين محاضرة عن « ماهية الدين » والتي كماسبق وأوضحنا ألقاها فيورباخ في شتاء 49/48 في هيدلبرج ، والتي سعى فيها فيورباخ إلى أن يملأ الفجوة التي كانت موجودة في «جوهر المسيحية » وذلك عن طريق التفصيل في موضوع هذا الكتاب الأخير ، والذي كان فيه اللاهوت Theology هو علم إنسان (انثربولوجيا) وأضاف فسيولوجيا ، وهكذا أصبح مذهبه ومفهومه للدين مقتصراً على كلمتين الطبيعة والإنسان . والعمل الأخير لفيـورباخ هـو الثيوغونيا Theogony طبقاً للمصادر الكلاسيكية والعبرية والمسيحية في العصور القديمة» ، والذي يشكل المجلد التاسع من أعماله الكاملة . والمجلد العاشر 1866 يتكون من مجموعة مختلفة من الرسـائل عن : « الالـه والحرية والخلود من وجهة نظر الانثربولوجي » .

وقد انتقل فيورباخ بعد ذلك من بروكبرج إلى ريسينبرج بالقرب من نورمبرج حيث اقتصرت حياته على أسرته ، ودائرة صغيرة من الاصدقاء المقربين ، ولانه استمر ناذراً نفسه لخدمة العلم فإنه لم يكون ثروات ونتيجة لهذا عانى عند أول حياته من حرمان قاس مزعج . وقد نجح معاصروه في أوربا وأميركا في أن يضمنوا له اكتتاباً عاماً كنوع من الاحساس بالجميل من جانبهم ، الغرض منه راحته هو واسرته من العوز بقية حياته ، ولكن صحته تدهورت نتيجة العمل والحرمان العقلي الشديد ، وصارت من سيء إلى أسوأ ، حتى انه لم يتمكن من أن يتمتع باحتفال الشعب به . وكانت تنتابه نوبات متكررة من السكتة الدماغية apoplexy overshadowed تحجب عنه وجوده مع إغماء جزئي إلى أن مات في 12 سبتمبر 1872 في ريشنباخ .

وفي محاولتنا أن نشير إلى موضوع كتابات فيورباخ عموماً نتيجة لما أسلفنا وإلى الجدل الذي تلا ذلك على وجه الخصوص فإننا لن نستطيع أن نقوم بهذا بشكل أفضل وأكثر جذباً للنظر من كلماته هو التي تحدث فيها عن حياته العملية كما يلي :

« كان شغلي ، دائماً قبل أي شيء آخر، أن أنير المناطق المظلمة للدين بمصباح العقل حتى يمكن للإنسان في النهاية ألا يكون ضحية للقوى المعادية التي تستفيد من غموض الدين لكي تقهر الجنس البشري ، وكان هدفي هو أن أبرهن أن القوى التي ينحني أمامها الإنسان خاضعاً متذللاً هي مخلوقات من عقله المحدود الجاهل الجبان الذي تعوزه الثقافة لكي ابرهن خصوصاً على أن الكائن الذي يضعه في موضوع أعلى منه ليصبح خصماً له كوجود خارق للطبيعة، مستقل، إنما هو في

الحقيقة الإنسان نفسه . والغرض من كتاباتي هـو أن أجعل النـاس انثربولوجيين بدلاً من أن يكونوا لاهوتيين ، أن يحبوا الإنسان بدلاً من أن يحبوا الله ، أن يكونوا طلاباً لهذا العالم بدلاً من أن يكونوا طلاباً للعالم الآخر ، أن يكونوا مواطنين معتمدين على أنفسهم في هذه الأرض بدلاً من أن يكونوا كهنة مراوغين خاضعين لحكومة كهنوتية وأرضية . وعلى هذا فإن هدفي ممكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون سلبياً هادماً ، فهو هدف إيجابي ، فأنا أنكر لكي أثبت ، أنكر أوهام اللاهوت والدين حتى يمكنني أن أؤكد الكيان الجوهري للانسان » .

ماهية الدين

الله صورة الإنسان

اعتماد الإنسان على الطبيعة المصدر الوحيد والأخير للدين[1]

(1)

إن هذا الكائن الذي يختلف عن الإنسان ويعتبر مستقلاً عنه ، أو هو نفس الشيء بالنسبة لله كما هو مقدم في « جوهر المسيحية» والكائن الذي ليس له طبيعة بشرية ، وليس له صفات بشرية ، وبدون فردية بشرية ليس شيئاً إلا الطبيعة[2] .

(2)

الشعور بالتبعية عند الإنسان هو مصدر الدين ولكن موضوع هذه التبعية ، أي التي يكون ويشعر الإنسان بتبعيته لها هي في الأصل ليست إلا الطبيعة ، فالطبيعة هي الموضوع الأصلي الأول للدين ، كما يبرهن على ذلك تاريخ كل الديانات والامم بدرجة كافية .

---

(1) قضية تلك الدراسة ، أو على الاقل نقطة البداية فيها هي الطبيعة كموضوع للدين . وقد كان علي أن لا اعطي اهتماماً لهذه القضية في كتابي « جوهر المسيحية » لأن جوهر المسيحية ليس الله في الطبيعة وإنما الله في الانسان .

2) الطبيعة بالنسبة لي ليست شيئاً سوى كلمة عامة تشير إلى هذه الكائنات والأشياء والموضوعات التي يميزها الإنسان عن نفسه وعن نتاجاته وهو يدركها تحت اسم الطبيعة العام ولكنها ليست بأي حال من الاحوال كائناً عاماً مجرداً أو منفصلاً عن الاشياء الحقيقية أو شخصاً من وجود ميتافيزيقي .

(3)

التأكيد بأن الدين فطري وطبيعي بالنسبة للإنسان [تأكيد] زائف إذا كان الدين يتطابق مع التأليه ، لكنه صحيح تماماً إذا كان الدين لا يعتبر شيئاً سوى هذا الشعور بالتبعية الذي يكون فيه الإنسان مدركاً تقريباً بأنه لا يوجد ولا يستطيع الوجود بدون كائن آخر مختلف عنه ، وان وجوده لا ينشأ في ذاته . وإذا كان فهمنا هكذا فإنه يكون ضرورياً للإنسان كضرورة النور للعين أو الهواء للرئتين أو الطعام للمعدة . والدين هو إظهار مفهوم الإنسان لنفسه ، ولكن علاوة على ذلك فإن الإنسان كائن لا يوجد دون ضوء ، ودون هواء ، ودون ماء ، ودون أرض ودون طعام ، هو باختصار كائن يعتمد على الطبيعة وهذا الاعتماد في الحيوان والإنسان طالما انه يتحرك داخل المجال الحيواني هو اعتماد غير واع . ولكن عند ارتفاعه إلى الوعي والتخيل وعند التفكير فيه والاعتراف به يصبح ديناً وهكذا فإن الحياة كلها تعتمد على تغير الفصول ، ولكن الإنسان بمفرده يحتفل بهذا التغير عن طريق أعمال درامية وأفعال ابتهاجية . ولكن هذه الاحتفالات التي تتضمن وتمثل تغير الفصول ، أو أشكال القمر هي أقدم وأول الديانات الإنسانية كما أنها أشكال الاعتراف الحقيقية لها .

(4)

الإنسان وكذلك أية أمة ، أوقبيلة ، إذا أخذنا كلاً على حدة ونظرنا إليه في النواحي التي تخصه لا يعتمد على الطبيعة أو الارض عموماً ولكن على موقع خاص وليس على الماء عموماً ، ولكن على نوع خاص

من المياه ، مجرى أو نافورة وهكذا فإن المصري لا يكون مصرياً بعيداً عن مصر ، والهندي ليس هندياً بعيداً عن الهند ولهذا السبب عينه فإن الامم القديمة التي كانت ملتصقة عن قرب بأرضها ولم تكن قد وصلت بعد إلى مفهوم طبيعتها الحقيقية كأفراد في الجنس البشري ، لكنها كانت متعلقة بفرديتها وخصوصيتها كأمم وقبائل، كان لها ما يبررها تماماً في عبادتها للجبال والأشجار والحيوانات والانهار والنافورات التي كانت جزءاً من بلدانها المحترمة ككائنات مقدسة وذلك لأن فرديتها الكلية ووجودها كان قاصراً في بنيانه على خصوصية بلدها وطبيعتها تماماً، وكذلك الذي يدرك الكون كبيت له ويدرك نفسه على أنه جزء منه ويحول الشخصية الكلية لكينونته الى مفهومه كله .

(5)

إنها لفكرة خيالية تلك التي تقول بأن الإنسان لم يتمكن إلا بواسطة الرعاية الالهية ومن خلال مساعدة الكائنات الخارقة مثل الالهة والارواح والجن والملائكة ليرفع نفسه فوق مستوى الحيوان، وبالطبيعة فقد فقد أصبح الإنسان بصورة ليس هو عليها فقط من خلال نفسه ، وقد احتاج من أجل هذا مساعدة الكائنات الأخرى ولكن هذه الكائنات لم تكن مخلوقات خارقة للطبيعة، من الخيال ولكنها طبيعة فعلية ، فهي ليست كائنات تعلوه وإنما تدنوه لأن كل شيء يساعد الإنسان في أفعاله الواعية والإرادية يسمى عموماً بشرياً ، وكل هبة وعطية لا تأتي من أعلى ولكن من أسفل فهي لا تأتي من فوق وإنما من أعمق أعماق الطبيعة . والكائنات المساعدة هذه وكذلك « الجان » التي تحفظ وتحرس الإنسان هي على وجه الخصوص الحيوانات ، واستطاع

الإنسان من خلالها فقط أن يرتفع بنفسه إلى أعلى منها ، ومن خلال حمايتها ومساعدتها فقط أمكن لبذرة الكمال البشري أن تنمو وهكذا فإننا نقرأ في كتاب زاندفستا Zendavesta وحتى في أكثر أجزائه قدماً فيداتنا Vendidad : « إن العالم مرفوع لاعلى من خلال ذكاء الكلب وإذا لم يحم العالم فإن اللصوص والذئاب سوف تسطو على كل الممتلكات » . وأهمية الحيوانات هذه للإنسان وخصوصاً في عصور الحضارة الغابرة تبرر تماماً العبادة الدينية التي كان ينظر بها إليها . فالحيوانات كانت ضرورية ولا يمكن للإنسان الاستغناء عنها ، فعليها اعتمد وجوده البشري ولكن حياته ووجوده اعتمدا على الهه الخاص . وإذا كان المسيحي لم يعبد الطبيعة على أنها الله فإن ذلك يرجع فقط إلى أن وجوده طبقاً لعقيدته لا يعتمد على الطبيعة ، ولكن على إرادة كائن مختلف عن الطبيعة ولكنه ما زال يفكر في هذا الكائن ويعبده على أنه مقدس بمعنى أنه كائن سام ويرجع ذلك فقط إلى أنه يراه مبدع وحافظ وجوده وحياته . وهكذا فإن عبادة الله تعتمد فقط على عبادة الإنسان لنفسه ، وهي ليست سوى إظهار لتلك العبادة فإذا افترضنا أنني احتقر نفسي وحياتي ، والإنسان أصلاً وعادة لا يفرق بين نفسه وحياته فكيف يمكن أن امتدح وأعبد ذلك الذي تعتمد عليه تلك الحياة الجديرة بالشفقة والاحتقار ، والقيمة التي أعزوها عن وعي لمصدر الحياة لا تعكس على هذا الا القيمة التي أعزوها عن وعي للحياة ولنفسي . وكلما زادت قيمة الحياة كلها زادت قيمة وقدر هؤلاء الذين يعطون الحياة ، أي الآلهة . كيف كان يمكن للآلهة أن تتألق في الذهب والفضة دون أن يعرف الإنسان قيمة واستعمال الذهب والفضة ؟ ما هو الفرق بين كمال وحب الحياة بين الإغريق وزهد واحتقار الحياة بين الهنود ؟ ولكن في نفس

الوقت ما هو الفارق بين علم الاساطير الهندي والاغريقي ، بين الهة الاولب وبين الإنسان Opossum والحيوان الهندي الضخم ، والحية المجلجلة [ذات الرنين rattle snake سلف الهنود] .

(6)

المسيحي يستمتع بحياته تماماً مثل الوثني ولكنه يرسل نذور شكره عن استمتاعه بالحياة عالياً إلى الاب [الذي] في السماء ، وهو يتهم الوثني بعبادة الاوثان لنفس السبب لأنه يقصر عبادته على المخلوق ولا يرتفع إلى السبب الاول ، كسبب حقيقي وحيد لكل المنافع ، ولكن هـل أدين بوجودي إلى آدم (الانسان) الاول)؟ هـل أوقره عـلى أنه والدي ؟ ولماذا لا أقف عند المخلوق ألست بنفسي مخلوقاً ؟ أليس أقرب الاسباب المادية لي في التحديد والفردية هي آخر سبب ، ليست نفسي بعيدة عنه لأنني نفسي كائن محدد وفردي ؟ أليست فرديتي غير قابلة للفصـل والتعريف لأنها من نفسي ومن وجـودي تعتمد عـلى فـرديـة والداي ؟ ألا أفقد إذا ما رجعت للوراء أخيراً كل آثار وجودي ؟ ألا يوجد بالضرورة حدّ في رجوعي هذا بحثاً عن السبب الأول ؟ أليست بداية وجودي فردية مطلقة ؟ هل تم إنجابي وحملي في نفس العام وفي نفس الساعة وبنفس المزاج ، باختصار تحت نفس الظروف التاريخية والخارجية مثل أخي ؟ ولهذا أليس أصلي (جوهري) من وجهة النظر الفردية كأصل لي أنا تماماً مثلما حياتي هي حياتي دون تناقض ؟ هل امتد - على هذا - بحبي البنوي [حب الابن] وتوقيري إلى آدم ؟ كلا إنني مخول تماماً لأن أتوقف عند توقيري الديني عند تلك الأشياء الأكثر قرباً

لي ، أي والداي على أنها سبب وجودي .

(7)

والسلسلة المتصلة من الاسباب أو المواضيع المحددة والتي عرفت بواسطة الملحدين قديماً على أنها غير محدودة وبواسطة المؤلهين على أنها واحداً محدوداً توجد (السلسلة) فقط في أفكار وخيال الإنسان مثل الوقت الذي تتبع فيه الدقيقة الاخرى دون مغالطة أو تمييز. وفي الحقيقة فإن الرتابة المملة لهذه السلسلة السببية يتم قطعها وتحطيمها بواسطة الاختلاف والفردية التي لدى المواضيع ، والتي تتسبب الفردية في ظهور كل منها جديداً مستقلاً مفرداً نهائياً ومطلقاً. وبالتأكيد فإن الماء الذي هو مفهوم الدين الطبيعي «كائن مقدس» هو من ناحية مركب يعتمد على الهيدروجين والاوكسجين ، ولكن في نفس الوقت شيء جديد إذا ما قارناه بنفسه فقط شيء أصلي إذا كانت صفات عنصرية المكونات له قد اختفت وتحطمت، وبالتأكيد فإن ضوء القمر الذي عبده الوثنيون في بساطتهم الدينية كضوء مستقل إنما يستمد ضوءه من ضوء الشمس المباشر ولكنه في نفس الوقت يختلف عنه ، فضوء القمر الخاص به قد تغير وتعدل بفعل مقاومة القمر وهكذا فإنه أصبح ضوءاً لا يمكن أن يوجد بدون القمر وخصوصيته لها مصدر وحيد فقط في القمر . وبالتأكيد فإن الكلب الذي يخاطبه الفارسي في صلاته على أنه كائناً مفيد وبالتالي مقدّس بسبب يقظته واستعداده للخدمة والخلاصه هو مخلوق للطبيعة وهو ليس ما هو عليه من خلال نفسه ومع ذلك فإنه ليس إلا الكلب نفسه هذا الكائن الخاص الذي لديه تلك الصفات التي تدعوني كي أوقره . هل لي الآن عندما أدرك هذه الصفات أن أنظر

إلى السبب الأول والعام وأدير ظهري إلى الكلب؟ولكن السبب العام دون التمييز الذي لدى الكلب الودود هو تماماً مثل الذي لدى الذئب العدو الذي اضطر الى أن أحطم وجوده بالرغم من السبب العام هذا إذا كنت سوف أبقي على حقي بالنسبة لوجودي .

(8)

والكائن المقدس الموحى به في الطبيعة ليس إلا الطبيعة نفسها وقد تجلت بقوة لا يمكنني مقاومتها ككائن مقدس . وقد عبد المكسيكيون القدماء الهاً أو بالاحرى آلهة للملح من بين آلهتهم العديدة واله الملح هذا يمكن أن يظهر كمثال أخاذ اله الطبيعة عموماً « فالملح الصخري » يمثل بالنسبة لاثاره الاقتصادية ،والطبية وباقي آثاره فائدة واستخدام الطبيعة التي امتدحها المؤلهون بدرجة كبيرة لتأثيرها على العين ولالوانها وبريقها وشفافيتها وجمالها وتركيبها وشكلها البلوري وانسجامها وتناسقها وتكوينها من عناصر متناقصة ومزج العناصر المختلفة للطبيعة في عنصر واحد كلّي ، هذا المزاج الذي اعتبره المؤلهون دائماً على أنه برهان لا يمكن الاعتراض عليه ، على وجود حاكم للطبيعة يختلف عنها وذلك لانهم بسبب جهلهم بالطبيعة لم يعرفوا أن العناصر والاشياء المادية مهيأة تمام التهيؤ لأن يجتذب الواحد منها الآخر ويتحد في كل جديد . ولكن من هو الآن اله الملح أي الاله الذي يحتوي الملح على سلطته ووجوده ومظهره ونتائجه وخواصه ؟ لا شيء سوى الملح ذاته الذي يبدو للإنسان بسبب صفاته ونتائجه كشيء مقدس بمعنى كائن نافع هام جدير بالمديح والاعجاب وقد خلع « هومير » على الملح صفة التقديس بوضوح وهكذا وحيث أن اله الملح ليس إلا انطباع أو تعبير

عن اله أو الهة الملح ، فنفس الأمر أيضاً بالنسبة لاله العالم أو الطبيعة عموماً فهو انطباع وتعبير عن قدسية الطبيعة .

(9)

والاعتقاد بأن هناك كائناً آخر في الطبيعة ظاهراً ومتميزاً عن الطبيعة ذاتها ، أو ان الطبيعة يملأها ويحكمها كائن آخر مختلف عنها إنما في الواقع يماثل العقيدة القائلة بأن الارواح والشياطين démons والعفاريت . . الخ تظهر نفسها من خلال الإنسان على الاقل في حالة معينة وإنها تستحوذ عليه وهو في الواقع نفس الاعتقاد بأن كائناً روحياً غريباً يستحوذ على الطبيعة . وفي الحقيقة فإن الطبيعة إذا ما نظرنا إليها على ضوء مثل هذا الاعتقاد فإنها تكون مملوكة لروح ، ولكن هذه الروح هي روح الإنسان وخياله ونفسه التي تنتقل بذاتها طواعية الى الطبيعة وتجعلها رمزاً ومرآة لكينونة الإنسان .

(10)

والطبيعة ليست فقط الموضوع الاول والاصلي ولكنها أيضاً المصدر الاخير والمستمر له ، برغم من الخلفية الباطنية للدين ، والاعتقاد بأن الله حتى عندما نتخيله ككائن خارق للطبيعة مختلف عن الطبيعة ، وموضوع يوجد خارج الإنسان ككائن موضوعي مثلما يدعوه الفلاسفة ، هذا الاعتقاد ليس له من مصدر الا في الحقيقة القائلة بأن الكائن الموضوعي الذي يوجد فعلاً خارجاً عن الإنسان أي العالم أو الطبيعة هو في الاصل الله . ووجود الطبيعة ليس مبنياً على وجود الله كما يتصور التأليه Theism ولكن العكس فإن وجود الله أو بالاحرى الاعتقاد في وجوده ليس مبنياً إلا على وجود الطبيعة ، فإنك مضطر إلى أن

تتخيل الله ككائن موجود وذلك فقط لأن الطبيعة بذاتها تضطرك إلى أن تفترض مسبقاً وجود الطبيعة ليس على أنها السبب والشرط لوجودك ووعيك، والفكرةالاولى المتعلقة بفكرة الله ليست إلا نفس الفكرة بعينها بأنه الوجود السابق لوجودك والمفترض قبله . أو أن الاعتقاد بأن الله يوجد بشكل مطلق خارج عقل الإنسان وروحه دون أن يهمنا في ذلك وجود الإنسان أو عدم وجوده ، تأمله أو عدم تأمله ، أو رغبته أو عدم رغبته فيه ، هذا الاعتقاد أو بالاحرى موضوعه لا يعكس لخيالك سوى الطبيعة التي لا يرتكز وجودها على وجود الإنسان بدرجة أقل بكثير مما يرتكز على فعل العقل والخيال البشري . وعلى هذا فإذا كان رجال اللاهوت وخصوصاً العقلانيون يجدون شرف الله بشكل واضح في أن لديه وجوداً مستقلاً عن أفكار الإنسان فإنهم يمكن أن يفكروا في أن شرف مثل هذا الوجود يجب أن يعزى بالمثل إلى الهة الوثنية العمياء وإلى النجوم والأحجار والحيوانات ، وانه في هذا المجال فإن وجود الههم لا يختلف عن وجود الإله المصري ابيس .

هذه الصفات التي تتضمن وتعبر عن الاختلاف بين الكائن المقدس والكائن البشري أو على الأقل الفرد البشري هي أصلاً وبوضوح صفات للطبيعة فقط . فالله هو أكثر الكائنات قوة أو بالاحرى فهو القدير بمعنى أنه يستطيع أن يفعل ما لا يستطيع الانسان وما يتجاوزه قواه المحدودة وما يلهمه إياه من شعور بالمذلة بسبب محدوديته وضعفه وعدمه . فيقول الله لجوب Job : « أتستطيع أن تثني أشكال التأثير الجميلة لبلاديس Pleiades أو تحل أحزمة أوريون Orion ؟ هل تستطيع أن ترسل البرق فترسل اليك وتقول ها نحن قد أتينا ؟ هل

أعطيت الحصان قوة ؟ هل يطير الصقر بواسطة حكمتك ؟ هل لك ذراع كالاله ؟ هل تستطيع أن تحدث صوتاً كصوت الرعد ؟ » كلا الإنسان لا يستطيع هذا فالصوت الإنساني لا يمكن مقارنته بالرعد . ولكن ما هي القوة التي تظهرها قوة الرعد وقدرة الحصان وطيران الصقر والطريق غير المستقر نحو بلاديس ؟ إنها قوة الطبيعة .

(11)

الله كائن خالد ولكن في الانجيل نفسه نقرأ : « يمضي جيل ويتبعه جيل آخر ولكن الأرض باقية إلى الأبد » . وفي كتب زندافستا يعبر عن الشمس والقمر بوضوح على أنهما خالدين بسبب استمرارهم وقال Inca البيروني [من بيرو] الى راهب من الدومنيكان : « إنك تعبد الهاً مات على الصليب ولكني أعبد الشمس التي أبداً لا تموت » .

والله هو الكائن الرحيم العطوف على الجميع « لأنه يجعل الشمس تشرق على الخير والشر ويرسل المطر للعادل والظالم » ولكن هذا الكائن الذي لا يميز بين الخير والشر والعادل والظالم ، والذي يوزع متع الحياة ، ليس طبقاً للصفات الاخلاقية والتي تترك أثرها العام على الإنسان ككائن طيب بسبب آثار مثل ضوء الشمس المنعش ومياه المطر كمصدر للاشياء المحسوسة الأكثر نفعاً : هذا الكائن هو الطبيعة .

والله هو كائن يحتوي على الكل وكلي وغير قابل للتغير ولكنه هو نفسه الشمس التي تشرق على كل الناس والكائنات وعلى الأرض وهو نفسه السماء التي تحتوي عليها كلها وهو نفس الأرض التي تحملها كلها ويقول Ambrasius : « إن الطبيعة العامة تبرهن على أن هناك إلهاً واحداً لأن هناك عالماً واحداً » . ويقول بلوتارك : « تماماً مثلما يشترك

الجميع في الشمس والسماء والقمر والأرض والبحر مع أن كل فرد يدعوها بأسماء مختلفة فبالمثل توجد روحاً واحدة تحكم الكون ولكن لها أسماء مختلفة ويتم عبادتها بطرق مختلفة » .

الله لا يستقر في المعابد التي صنعتها الايدي ، ولا يستقر في الطبيعة من يستطيع أن يطوق الضوء والسماء والبحر بحدود من وضع البشر ؟ لقد عبد الفرس والألمان القدماء الطبيعة فقط ولكن لم يكن لديهم معابد ، فعابد الطبيعة يجد أن صلاة المعبد أو الكنيسة صناعية ، والحوائط التي يتم قياسها بعناية ضيقة جداً وشديدة الحرارة والرطوبة ولا يشعر براحته إلا تحت قبة السماء التي لا حد لها والتي تظهر حين يتأملها بحواسه .

والله هو ذلك الكائن الذي لا يمكن تعريفه باستخدام مقاييس بشرية فهو مخلوق عظيم لا يمكن قياسه ، لا محدود ، ولكنه كذلك لأن عمله وهو الكون عظيم ولا يمكن قياسه وغير محدود وعلى الأقل يبدو كذلك والعمل يمتدح سيده ، فروعة الخالق ليس لها من أصل إلا في روعة انتاجه . « كم هي عظيمة الشمس ولكن ما هو أكثر عظمة ذلك الذي خالقها » . والله خالق الأرض وللإنسان كائن أعلى ولكن حتى هذا الكائن الأعلى هو في أصله وأساسه ليس إلا الكائن الأعلى في الفضاء الذي يمكن أن نفكر فيه بصرياً : السماء بظواهرها البراقة . وتقوم كل الديانات التي لديها نوعاً من التخيل بتحويل الهتها إلى منطقة السحاب وإلى أثير الشمس والقمر والنجوم وتضيع كل الالهة في بخار السماء الزرقاء في النهاية حتى الأعلى الروحي للمسيحية له مقعدة وقاعدته عالياً في السماء » . الله كائن غامض لا يمكن إدراكه حسياً

ولكن ذلك لأن الطبيعة بالنسبة للإنسان وخصوصاً المتدين كائن غامض لا يمكن إدراكه حسياً ويقول الله لجوب : « هل تعلم كيف تزن السحاب ؟ هل دخلت في ينابيع البحر ؟ هل أدركت إتساع الأرض ؟ هل رأيت كنوز البر ؟

وأخيراً فإن الله هو ذلك الكائن المستقل عن الإرادة البشرية والذين لا تحركه الحاجات والعواطف البشرية ولا يساويه الا نفسه ويحكم طبقاً لقوانين غير قابلة للتغير ويقيم نظمه غير قابلة للتغير طوال الأزمان ولكن هذا الكائن مرة أخرى ليس سوى الطبيعة التي تظل كما هي في كل التغيرات ولا تعرض أبداً مظاهر التردد التي تكون عند الحاكم الجائر الذي يعقل ما يريد ولكنها تخضع في كل مظاهرها إلى قوانين غير قابلة للتغير طبيعة قاسية غير مبالية »[3] .

(12)

ومع أن الله خالق للطبيعة نتخيله ونمثله ككائن مختلف عن الطبيعة فإن ما يتضمنه ويعبر عنه هذا الكائن ، وكذلك أجزاءه الحقيقية real contents ليست إلا الطبيعة ؟ وكما نقرأ في الانجيل : « سوف

---

(3) كل هذه الصفات التي أخذت أساساً من التأمل في الطبيعة فقط أصبحت في عصور تالية مجردة ، ميتافيزيقية تماماً كما أصبحت الطبيعة نفسها خلقاً من عقل الإنسان حيث ينسى الإنسان أصل الآلهة في الطبيعة ، وعندما لم يعد الله موضوعاً للاحاسيس وإنما كائناً خيالياً ، وعندما يجب علينا أن نقول ان الله ليس له صفات إنسانية وإنه يجب تمييزه عن الاله الإنساني ، وانه ليس شيئاً سوى جوهر العقل ، فإننا نجد علاقة بين هذا العمل وأعمالي السابقة قبل « لوثر » وه جوهر المسيحية » .

تعرفونهم من ثمارهم » ويشير الحواري بولس الى العالم على أنه العمل الذي يمكن من خلاله أن نفهم وجود وكينونة الله لأنّ ما ينتجه المرء يتضمن كينونته ويظهر ما هو قادر على فعله . وما لدينا في الطبيعة وما لدينا في الله إذا ما تخيلناه فقط على أنه خالق أو سبب الطبيعة ليس كائناً أخلاقياً وروحياً ولكنه كائن فيزيقي طبيعي فقط ، فالعادة المبنية على الله كخالق للطبيعة فقط دون أن ترجع اليه أي صفات أخرى مستمدة من الإنسان ودون أن نتخيله في الوقت نفسه على أنه سياسي وأخلاقي ، بمعنى أنه يشرع القوانين للبشر ، مثل هذه العبادة سوف تكون مجرد عبادة للطبيعة . صحيح أن خالق الطبيعة يتمتع بالعقل والإرادة ولكن الذي ترغب فيه إرادته والذي يفكر فيه عقله هو تماماً الذي لا يتطلب إرادة وعقل ولكن قوى وحوافز آلية فيزيقية وكيميائية ونباتية وحيوانية فقط .

(13)

ومثلما يكون تكون الطفل في الرحم صغيراً وكذا نبضات القلب والهضم والوظائف العضوية الاخرى والتي هي نتائج للعقل والارادة فإن تأثير أو نتاج الكائن الروحي في الطبيعة عموماً يكون صغيراً بمعنى الكائن الذي يريد ويعرف أو يفكر . وإذا كانت الطبيعة أساساً هي نتاج العقل وعلى هذا فإنها تجل manifestation للعقل ، حينئذٍ فإن الظواهر الطبيعية للزمن الحالي سوف تكون أيضاً تأثيرات روحية وتجليات . البداية الخارقة للطبيعة تتطلب بالضرورة استمراراً خارقاً للطبيعة . لأن الإنسان يعتقد أن العقل والارادة هما سبب الطبيعة وذلك عندما تتحدى التأثيرات إرادته الخاصة به ، وتتعدى عقله حيث يفسر الاشياء من خلال تشابهات وأسباب بشرية وحيث لا يعلم شيئاً

عن الاسباب الطبيعية وبهذا تستمد الظواهر الخاصة والحالية من الله أو أيضاً على سبيل المثال حركة النجوم التي لا يستطيع فهمها من الارواح التابعة [الادنى] Subordinate . وإذا لم يعد مركز الأرض والنجوم كما هو عليه الآن كلمة الله القدير ، والدافع في حركتها ليس دافعاً روحياً أو ملائكياً ولكن آلي « ميكانيكي » حينئذٍ فإن السبب الأول لهذه الحركة هو أيضاً بالضرورة سبب آلي أو عموماً طبيعي ، وإذا استمدت الطبيعة من العقل والإرادة أو بوجه عام من العقل فإن هذا معناه أننا نغفل المصاعب أو الاعتبارات المهمة « ونأتي ننقذ العالم من العذراء دون مساعدة الإنسان من خلال الروح القدس » ومعناه أن « نحول الماء إلى خمر » ومعناه أن نسكن العواطف « بالكلمات » وان تحول الجبال « بالكلمات » ويستعيد الكفيف بصره « بالكلمات » . والذي يفعله الضعيف وضيق الافق هو أنه يستغني عن الأسباب الثانوية للخرافات مثل المعجزات والشياطين والارواح . . الخ من تفسيره لظواهر الطبيعة ولكنه يترك السبب الاول لهذه الخرافات دون أن يمسه .

(14)

يؤكد العديد من الكتاب الكنسيين القدماء أن ابن الله ليس نتاجاً لارادة الله ولكنه نتاج لطبيعة الله ؛ وان نتاج الطبيعة سابق على نتاج الارادة ، وعلى هذا فإن فعل الانجاب كفعل للطبيعة يتقدم على فعل الخلق كفعل للارادة وهكذا فإن الاعتراف بالطبيعة وقوانينها ذات القدرة الكلية يسود حتى داخل مجال الاعتقاد بالله الخارق للطبيعة ، مع أن هذا كما هو واضح جداً تناقض لارادته ووجوده . ومن المفترض أن فعل الانجاب سابق لفعل الارادة ؛ فنشاط الطبيعة يعتبر سابقاً لنشاط

الفكر والارادة . وهذا حقاً تماماً . فالطبيعة يجب بالضرورة أن توجد قبل وجود أي شيء يتميز بنفسه عنها ويضع الطبيعة كموضوع لفعل التفكير، والارادة في مقابل ذاته. والطريق الصحيح للفلسفة يسير من الذكاء (التفكير) intelligence الى العقل intellect ولكن الطريق المباشر للاهوت الذي يؤدي الى مستشفى المجانين يمضي من العقل intellect الى التفكير intelligence وعدم وضع العقل (الروح) mind على الطبيعة وعلى العكس وضع الطبيعة على العقل هو نفس الامر إذا لم نضع الرأس على المعدة بل وضعنا المعدة على الرأس . وأي درجة أعلى من درجات التطور تفترض مسبقاً الدرجة الادنى وليس العكس[4] وذلك بسبب بسيط وهو أن الجزء الاعلى يجب أن يكون هناك شيء أدنى منه حتى يكون هو الاعلى . وكلما زاد علو الكائن وعظمة قيمته أو علا شرفه كلما زادت افتراضاته المسبقة ولهذا السبب ذاته فإنه ليس الكائن الأول ولكن الأخير الذي يعتمد إلى أقصى درجة على غيره والذي يحتاج أكثر من غيره ، والاكثر تعقيداً عن غيره هو الكائن الاعلى تماماً كما هو الامر في تاريخ تكون الارض فإن النواتج الاخيرة(والأكثر حداثة مثل البازلت)المركزه هي أكثرها ثقلاً وليست المواد التي تكونت في البداية من الاردوز والجرانيت. فالكائن الذي ليس لديه الشرف في أن يفترض شيئاً مسبقاً له الشرف أيضاً في الا يكون شيئاً ولكنه من الصحيح أن المسيحين يفهمون جيداً فن عمل شيء من لا شيء .

---

(4) قد يصدق هذا بالمعنى المنطقي ، ولكنه لا يصدق أبدا كل تكوين حقيقي real genesis . concerned

(15)

« كل الأشياء تأتي من الله وتعتمد عليه » ـ هذا هو ما يقوله المسيحي بما يتفق مع إيمانه الالهي « ولكن » سرعان ما يضيق « بشكل غير مباشر » بعقله غير الالهي ان الله هو فقط السبب للاول الذي يأتي بعده جيش لا نهاية له من الالهة التابعة ، فوج من الأسباب الوسطى . ولكن الاسباب الوسطى تلك هي فقط الأسباب المؤثرة والحقيقية وهي ليست إلا الاسباب المحسوسة والموضوعية . فالاله الذي لم يعد يلقي الإنسان باسهم «ابوللو»، الذي لم يعد يوقظ الروح بصواعق وبرق جوبيتر ، والذي لم يعد يهدد العاصي بالمذنبات والظواهر النارية الاخرى ، والذي لم يعد يجذب بيده العليا الحديد إلى حجر المغناطيس ، ويحدث المد والجزر ويحمي اليابسة من قوى المياه التي تهدد دائماً بطوفان آخر ، وباختصار الاله الذي أخذ من امبراطورية الاسباب المتوسطة ليس إلا مجرد سبب اسماً ، فهو مخلوق غير مؤذي وجد متوضع في الخيال ،وهو مجرد افتراض من أجل حل المسألة النظرية وتفسير بداية الطبيعة أو بالاحرى الحياة العضوية ، وعند افتراض كائن مختلف عن الطبيعة بغرض تفسير وجودها وله أصل فقط في المحال مع أن هذا وجود نسبي وذاتي فقط ، وبغرض تفسير الحياة العضوية البشرية على وجه الخصوص من الطبيعة يعادل ما يقوم به المؤله في عجزه عن تفسير الحياة من خلال الطبيعة وعجز الطبيعة على أن تثمر الحياة من ذاتها وهكذا يمد حدود عقله إلى حدود الطبيعة .

(16)

الخلق Creation والحفظ preservation لا يمكن فصلهما وعلى هذا

إذا كان الكائن مختلفاً عن الطبيعة ، عن الله الذي هو خالقنا فهو أيضاً حافظنا وليس قوى الهواء أو الحرارة أو المياه أو الخبز ، ولكن قوى الله تبقينا وتحفظنا كما يقول « لوثر » : « فإنه ليس الخبز ولكنها كلمة الله تغذي أيضاً الجسد بطريقة طبيعية وتخلق وتحفظ كل الأشياء ، ولانها توجد فإنه (الله) يقوم بالتغذية بواسطتها وتحت سمعها حتى أننا لا نراها ونعتقد أن الخبز يقوم بذلك . ولكن عندما لا توجد فإنه يُغذي دون الخبز من خلال كلمته فقط كما يفعل بواسطة الخبز ، قصارى القول فإن كل المخلوقات هي أقنعة ومسرحيات صامتة تخص الله يسمح لها أن تساعده في كل أنواع العمل التي تستطيع القيام به ، وبالفعل فإنها تؤدي ذلك دون معاونة » ولكن إذا كان الله هو حافظنا بدلاً من الطبيعة ، فإن الطبيعة هي مجرد شكل متنكر للإله ، وعلى هذا تصبح كائناً زائفاً تخيلياً والعكس صحيح تماماً فالله هو كائن زائف وتخيلي إذا كانت الطبيعة تحفظنا ، ولكن الشيء الواضح الآن والذي لا يمكننا إنكاره أننا ندين بالابقاء علينا إلى الآثار والصفات والقوى الخاصة بالكائنات الطبيعية : فقط ـ وعلى هذا فإننا لسنا مخولين فحسب ، لكننا مضطرون إلى أن نصل إلى نتيجة أننا ندين بأصلنا أيضاً الى الطبيعة ، فقد وضعنا في منتصف الطبيعة تماماً وهل يمكن لبدايتنا ولأصلنا أن يكمن خارج الطبيعة ؟ [نحن نعيش داخل الطبيعة وعلى الطبيعة وبواسطة الطبيعة فهل يجب علينا مع ذلك ألا نكون منها ؟ يا له من تناقض !] .

(17)

الارض لم تكن دائماً في حالتها الحاضرة ، وعلى العكس فقد أخذت

شكلها الفعلي من خلال سلسلة من التطورات والثورات ، واكتشف علم الجيولوجيا أنه في المراحل المختلفة لتطوره كانت توجد أجناس متعددة من النباتات والحيوانات لم يعد لها وجود بعد أو حتى كانت توجد على مدى عصور ، على سبيل المثال لم يعد يوجد Encinites أو الامونيات Ammonites ولا الزواحف المجنحة Pterodactyles أو الاكصورات Ichthyosauri ولا البلصورات Plesiosauri ولا البهضيات Megatheria ولا الديناصورات Dinotheria ، ولم لا ؟ كما يظهر ، لأن شرط وجودها لم يعد موجوداً ، ولكن إذا كانت نهاية أي حياة تتوافق مع نهاية ظروفها فحينئذٍ فإن البداية أيضاً ، وأصل مثل هذه الحياة يتوافق مع أصل ظروفها حتى الآن عندما نجد النباتات ، على الاقل تلك النباتات ذات التنظيمات الاعلى والتي تدب فيها الحياة عن طريق الانجاب العضوي فإنها تستطيع بطريقة جديرة بالملاحظة ، مع أنه لا يمكن تفسيرها إذ تبدو في أعداد لا حصر لها بمجرد ما تمنح لها ظروف حياتها الخاصة بها . وعلى هذا فإنه لا يمكن أن نعتقد أن أصل الحياة العضوية هو عمل معزول ، أي عمل يأتي بعد نشأة ظروف الحياة ولكنه بالاحرى هو العمل واللحظة التي تتلقى فيها درجة الحرارة والهواء والماء والارض عموماً مثل هذه الصفات حيث يدخل الاوكسجين والهيدروجين والكربون والنيتروجين داخل هذه التركيبات كأشياء ضرورية لوجود الحياة العضوية وهذه اللحظة يجب أيضاً أن ينظر اليها على أنها اللحظة التي تمتزج فيها هذه العناصر من أجل تكوين الاجساد العضوية وعلى هذا إذا كانت الارض بفضل الطبيعة الخاصة بها قد استطاعت على مر الزمن أن تطور وتهذب نفسها لدرجة تنبت بها

شخصية مناسبة لوجود الإنسان ومتلائمة مع طبيعة أو لنقل شخصية بشرية ، فإنها تستطيع حينئذٍ أن تنتج الإنسان بفضل قوتها الذاتية .

(17)

قوى الطبيعة ليست « لا محدودة » مثل قوى الله ، أي قوى الخيال الإنساني فإنها [الطبيعة] لا تستطيع أن تفعل كل شيء في كل الأوقات وتحت كل الظروف فإنتاجها ونتائجها تعتمد على الظروف ، وعلى هذا إذا كانت الطبيعة لا تستطيع اليوم أن تنتج أجساداً عضوية عن طريق generatio œquivoca فإن هذا ليس دليلاً على أنها لم تستطع أن تقوم بذلك في الأزمنة الماضية . والسمة الحالية للأرض هي الثبات فقد مضى زمن الثورات ولم تعد الارض تضطرم والبراكين ليست رؤوساً مضطربة مفردة ليس لها تأثير على الجماهير ولهذا فإنها لا تزعج النظام القائم للأشياء وحتى أعظم البراكين التي يتذكرها الإنسان أي ثورة بركان Jorullo في المكسيك لم تكن شيئاً سوى تمرداً محلياً . ولكن حيث أن الإنسان يتجلى manifests في الأوقات غير العادية ؛ القوى غير العادية أو أنه يستطيع أن يفعل في أوقات الانفعال والابتهاج العالية ما لا يستطيعه في الأوقات الأخرى ، وحيث أن النبات يستطيع في أوقات معينة ، مثل فترة نمو البذرة والتفتح والتلقيح أن ينتج الحرارة ويستهلك الكربون والهيدروجين فإنه هكذا يظهر وظيفة حيوانية تتناقض بطريقة مباشرة مع وظائفه النباتية العادية ، وهكذا الارض فإنها في زمن ثورتها الجيولوجية فقط حين كانت كل قواها وعناصرها في حالة هياج عالية جداً fermentation وفي حالة غليان وتوتر فقط طورت

قوى لانتاج الحيوانات ونحن نعرف الطبيعة فقط في شكلها الحالي وكيف لنا أن نستنتج أن ما لا يحدث بواسطة الطبيعة الآن لا يمكن أن يحدث مطلقاً حتى في عصور مختلفة تماماً وتحت ظروف وعلاقات مختلفة تماماً[5].

(18)

لم يكن لدى المسيحيون القدرة الكافية لكي يعبروا عن دهشتهم من أن الوثنيين قد عبدوا كائنات مخلوقة على أنها كائنات إلهية ، ولكن يبدو أنهم قد أعجبوا بهم لهذا السبب، لان هذه العبادة كانت مبنية على تأمل صحيح تام للطبيعة . الانتاج والمجيء إلى الحياة ليس إلا التفرد individualized . فكل الكائنات الفردية هي كائنات مخلوقة ولكن العناصر الاساسية العامة وكائنات الطبيعة التي ليس لها فردية ليست مخلوقة . فالمادة ليست مخلوقة . ولكن الكائن الفرد يتميز بنوع أعلى وأكثر قداسة من تلك التي ليس لها فردية . وصحيح أن الميلاد أمر شائن والموت أمر مؤلم ولكن الذي لا يريد أن يبدأ وينتهي فإنه يمكن أن يبتعد عن صف الكائن الحسي ، فالخلود لا يدخل في إطار آخر يخلقه ، ولكن هذا الكائن الأخير لا يعلو الاول ويكون في مرتبة أدنى من مرتبة

---

(5) يبدو واضحا بذاته ، أنني لا أرغب في ان المخلص في هذه الكلمات الاشكالية العويصة التي تتعلق بأصل الحياة العضوية ، ولكن فهذه الكلمات كافية في برهاني argument هنا لانني أعطي فقط براهين غير مباشرة على أن الحياة ليس لها مصدر آخر سوى الطبيعة . وفيما يتعلق بالبراهين المباشرة للعلم الطبيعي فإننا ما زلنا بعيداً عن الهدف ولكن بالمقارنة بالعصور السابقة ـ وخاصة من بعد إثبات تماثل الظواهر العضوية وغير العضوية ـ فإننا على الاقل غير قادرين على الاقتناع بالاصل الطبيعي للحياة على الرغم من أن هذا الاصل غير معروف لنا بعد أو حتى إن كان لن يكشف لنا .

خالقه . صحيح أن الكائن الخالق هو سبب الوجود وفي هذا المجال فإنه الكائن الاول ، ومع ذلك فإنه في نفس الوقت يكون مجرد وسيلة ومادة وأساس لوجود كائن آخر ، وبالتالي يكون تابعاً فالطفل يستهلك امه ويأخذ من قوتها ومن جوهرها لصالحه ، ويستمد لونه وجفنيه من دمها . والطفل هو فخر أمه فهي تضعه في مرتبة أعلى منها وتربط وجودها ورفاهيتها بوجود ورفاهية الطفل ، وحتى عند الحيوان فإن الام تضحي بحياتها من أجل حياة صغارها . وأعمق مراتب الخزي لأي كائن هو الموت ولكن مصدر الموت هو فعل الانجاب ، والانجاب ليس إلا أن تطوح بنفسك بعيداً وان تجعل منها شيئاً عاماً وان تتوه بين الجماهير وان تضحي بفرديتك من أجل الكائنات الأخرى . ولا يوجد شيء يمتلىء بالتناقض والضلال ويخلو من المعنى أكثر من أن تعتبر الكائن الطبيعي نتاجاً لكائن أسمى كمالاً من الناحية الروحية . وطبقاً لهذه العملية وبما يتفق مع كينونة المخلوق كصورة للخالق فقط فإن الاطفال لا يجب أن ينشأوا في ذلك العضو المخزي الهابط وهو الرحم ولكن في إعلى الأماكن تنظيماً وهو الرأس .

(20)

وقد استمد الاغريق القدماء كل الينابيع والآبار والجداول والبحيرات والمحيطات من الايكونوس Oceanos وقد جعل الفرس القدماء كل جبال الارض تنشأ في جبل البردى Albordy ، فهل استمداد كل الكائنات من كائن واحد كامل شيء مختلف أو أفضل من ذلك ؟ كلا أنه مبني على نفس الطريقة من التفكير وحيث أن البردى جبل ككل الجبال التي نشأت منه ، فإن الامر كذلك بالنسبة للكائن

المقدس فهو مصدر كل الكائنات التي استمدت منه ، فهو مثلهم لا يختلف عنهم بالنسبة للجنس ولكن حيث أن البردى يتميز عن الجبال الاخرى لاحتفاظه بصفاتهم بدرجة واضحة ، بمعنى درجة بلغ فيها الخيال إلى أقصى درجة ، وصعد بها إلى عنان السماء ووراء الشمس والقمر والنجوم ، فكذلك يتميز الكائن المقدس عن كل الكائنات الأخرى . والوحدة غير منتجة ، إنما الثنائية والتناقض والاختلاف هي المنتجة فقط ، والذي ينتج الجبال لا يختلف عنها فقط ، ولكنه متشعب الجوانب في ذاته . وتلك العناصر التي تنتج الماء لا تختلف عن الماء فقط ولكنها تختلف أيضاً عن نفسها ، بل أنها تتخاصم مع بعضها البعض ، وتماماً فإنه كما أن العبقرية والفطنة والالمعية والذكاء لا يتيحها ولا يطورها إلا التناقضات والصراعات ، فإن الحياة أيضاً لا ينتجها إلا تصارع العناصر والقوى والكائنات المختلفة والمتنازعة .

(21)

« كيف يمكن للذي خلق الأذن أن يجعلها لا تسمع ؟ وكيف يمكن للذي خلق العين أن يجعلها لا تبصر ؟ » وهذا القول الانجيلي المؤله للكائن الذي خلعت عليه حواس السمع والبصر من كائن آخر يتمتع بنفس الحواس ، وإذا استخدمنا لغة الفلسفة الحديثة التي تقول بأن الكائن الذاتي والروحي يستمد نفسه من كائن روحي وذاتي آخر فإن ذلك مبني على نفس الاساس ويعبر عن نفس التفسير الانجيلي للمطر على أنه كتل سماوية من المياه تجمعت فيما وراء أو في داخل السحب ، أو استمداد الفرس للجبال من الجبل الاصلي البردى ، أو التفسير الاغريقي للينابيع والانهار من الايكونوس . فالمياه تأتي من المياه ،

ولكنها تأتي من مياه عظيمة بدرجة كبيرة وتضم كل المياه، والجبال من الجبل ولكن من جبل لا نهائي يضم كل الجبال وهكذا فالروح من الروح ، والحياة من الحياة ، والعين من العين ، ولكن من عين وروح وحياة لا نهائية تضم كل الاعين والحيوات والارواح .

(22)

عندما يتساءل الاطفال عن أصل الميلاد [ميلادهم] فإننا نعطيهم التفسير القائل بأن المربية قد أخذتهم من البئر حيث كانوا يسبحون فيه كالاسماك . والتفسير الذي يعطينا إياه اللاهوت بخصوص أصل الموجودات العضوية والطبيعية لا يختلف كثيراً عن ذلك . فالله هو بئر الخيال العميق أو الجميل الذي يحوي كل الوقائع والكمالات والقوى ، والذي تسبح فيه كل الأشياء التي تم خلقها مثل الوليد الاسماك ، واللاهوت هو المربية التي تأخذهم من هذه البئر ، ولكن الشخص الرئيس وهو الطبيعة ، وهي الام التي تأتي بالاطفال ورغم أنها هي التي انتابها الالم وهي التي تحملهم خلال تسعة أشهر تحت قلبها فقد أبعدت تماماً من مجال الاعتبار في هذا التفسير والذي كان أصلاً كتفسير الاطفال ، ولكنه الآن تفسير طفولي. وبالتأكيد فإن مثل هذا التفسير أكثر جمالاً وقبولاً للقلب وأكثر سهولة ووضوح ومعقولية لاطفال الاله عن الطريق الطبيعي الذي لا يترك الظلمات إلى النور الا بخطوات مرحلية ومن خلال عقبات لا حصر لها . ولكن التفسير الذي قال به أسلافنا الوارعون عن العواصف الثلجية والاوبئة بين الماشية والقحط والعواصف الرعدية حيث أرجعوها إلى [صناع الطقس] والسحرة أكثر عملية وسهولة ، وأكثر معقولية لغير المتعلمين حتى اليوم عن تفسير

هذه الظواهر بأن لها اسباباً طبيعية .

(23)

« أصـل الحيـاة غـير قـابـل للتفسـير inexplicable ولا الادراك inconceivable » . وليكن الأمر كذلك ؛ ولكن عدم الفهم هذا لا يجعلنا نجد مبرراً في أن نستمد منه النتائج الخرافية Superstitions التي يستمدها اللاهوت من قصور المعرفة الإنسانية ولا نمضي فيها وراء مجال الاسباب الطبيعية : لأننا نستطيع فقط أن نقول « أننا لا نستطيع أن انفسر الحياة على أساس هذه الظواهر والأسباب الطبيعية المعروفة لنا أو إلى المدى التي تكون فيه معروفة لنا» ولكننا نستطيع أن نقول « أن الحياة لا يمكن تفسيرها على الاطلاق من الطبيعة » دون أن نـزعم أننا قـد استنفدنا بالفعل محيط الطبيعة إلى آخـر قطرة . وعدم الفهم هذا لا يسوغ لنا أن نفسر بما يصعب تفسيره بافتراضنا كـائنات متخيلة وأن نخدع أنفسنا والآخرين بتفسير لا يفسر شيئاً . ولا يبرر لنا أن نغير جهلنا بالأسباب المادية الطبيعية إلى عدم وجود لهذه الأسباب وأن نؤله ونشخص ونمثل جهلنا في كائن يحطم مثل هذا الجهل ومع هذا لا يعبر عن شيء الاّ عن طبيعة هذا الجهـل وقصور أسبـاب التفسير المـادية لوضعية . فما هو إذن الكائن غير المادي والروحي وغير الطبيعي الذي يوجد فيما وراء العالم المادي والذي نحاول أن نرجع اليه هكـذا كل الحياة ، إلا أن يكون التعبير المحدد للغياب العقلي للأسباب المادية والجسدية والطبيعية والكونية ؟ ولكن بـدلاً من أن تكون عـلى درجة كبيرة من الامانة والتواضع فتقول بصراحة : « نحن لا نعرف أي سبب ولا نعرف كيف نفسره وليس لدينا معطيات أو مادة » قم بتغيير أوجه لنقص هذه والسلبيات وفراغ رأسك وحوله إلى نشاط لخيالك يحص

كائنات إيجابية وكائنات غير مادية أي إلى كائنات ليست مادية أو طبيعية لانك لا تعرف أي أسباب مادية أو طبيعية . وبينما يرضى الجهل بالكائنات غير المادية والروحية وغير الطبيعية فإن رفيقه الذي لا يمكن فصله عنه وهو الخيال المتحرر والذي ينغمس دائماً في صلات مع الكائنات ذات الكمال الاعلى فإنه يرفع في الحال مخلوقات الجهل هذه إلى مرتبة الكائنات الخارقة للطبيعة .

(24)

والفكرة القائلة بأن الطبيعة أو الكون عموماً لهما بداية حقيقية ، وعلى هذا لم تكن توجد طبيعة في وقت ما ، ولم يكن يوجد كون هي فكرة محدودة ، تبدو مقبولة للإنسان طالما أن مفهومه للعالم ضيق ومحدوداً . فهذا خيال دون معنى وأساس - وهذا الخيال الذي لم يكن لديه شيء حقيقي يوماً ما لأن الكون هو محصلة الواقع وكل الصفات والتعريفات الخاصة بالله والتي تجعل منه كائناً موضوعاً حقيقياً ، ليست إلا شكلاً مجرداً من الطبيعة وتفترض مسبقاً الطبيعة وتعرفها على أنها ما كان لها أن توجد إذا لم تكن الطبيعة موجودة . وهذا صحيح إذا جردنا ذلك من الطبيعة، فإذا حطمنا وجودها في أفكارنا أو خيالنا بمعنى إذا أغلقنا أعيننا وأخفينا كل صور الأشياء الطبيعية التي تعكسها حواسنا ، وإدراكنا الطبيعة بدون حواسنا(ليس عينينا in Concrete كما يقول الفلاسفة) يتبقى لنا كائن ومجموع صفات مثل : اللامحدودية ، والقوة والوحدة والضرورة والخلود ، ولكن هذا الكائن الذي يتبقى لنا بعد استنتاج كل الصفات والظواهر التي تعكسها حواسنا هو في الحقيقة ليس إلا الجوهر المجرد للطبيعة أو الطبيعة مجردة in abstract في

الفكر . ولهذا فإن اشتقاق الطبيعة أو الكون من الله هو من هذا الجانب ليس إلا اشتقاق الجوهر الحقيقي للطبيعة كما يبدو لحواسنا ، من جوهرها المجرد المتخيل والذي يوجد في فكرتنا فقط وهو اشتقاق يبدو انه معقول لاننا في فعل التفكير نكون معتادين على أن نفكر في المجرد والعالم على أن يكون أقرب إلى التفكير وعلى هذا يجب أن نفترضه من قبل للفرد أمام الحقيقي والغيبي الذي يكون أعلى وأكثر قرباً في الفكر مع أنه في الواقع يحدث العكس تماماً طالما أن الطبيعة توجد قبل الله ، بمعنى أن العيني قبل المجرد ؛ بمعنى أننا ندرك بحواسنا قبل الذي نفكر فيه . وفي الحقيقة فإنه عندما تمضي الأشياء طبيعياً فإن النسخة تتبع الاصل ، والصورة تتبع الشيء الذي تمثله ، والفكر يتبع موضوعه ، ولكن على المستوى الخارق للطبيعة بالنسبة للاساس الاعجازي للاهوت فإن الاصل يتبع النسخة والشيء يتبع شبيهه . ويقول القديس أوغسطين Augustine : « من الغريب ومع أنه من الصحيح أن هذا العالم ما كان له أن يوجد إلا لأنه قد تم التفكير فيه ، من الله » وهذا يعني : أن العالم كان معروفاً ومفكراً فيه قبل وجوده . فالوجود هو نتيجة للمعرفة ، أو لفعل التفكير ، فالأصل نتيجة للنسخة والموضوع نتيجة للشبيه Likeness .

(25)

وإذا ما ارجعنا العالم أو الطبيعة إلى كلية tolality من الصفات المجردة والى الميتافيزيقي بمعنى الموضوع المتخيل ليس إلا ، ونظرنا إلى هذا العالم المجرد على أنه العالم الحقيقي فإنه سوف يكون من الضروري منطقياً أن ننظر اليه على أنه عالم محدود . فالعالم يعطي لنا من خلال

بعل التفكير كما أنه لم يعط على الاقل من خلال التفكير الميتافيزيقي والفيزيقي المبالغ فيه والذي يتجرد من العالم الحقيقي ويقيم وجوده الاعلى والصحيح على مثل هذا التجريد. فالعالم معطى لنا من خلال الحياة والادراك والحس والحواس وذلك لأن الكائن المجرد يعتقد أنه لا يوجد ضوء لانه ليس له أعين ولا يوجد دفء لأنه ليس له شعور ، وعموماً فإنه لا يوجد عالم لأنه لا توجد أداة إدراك حسي ؛ وبالنسبة لمثل هذا الكائن فإنه في الحقيقة لا يوجد شيء . وعلى هذا فالعالم يوجد بالنسبة لنا وذلك لأننا لسنا مجرد كائنات منطقية أو ميتافيزيقية ، ولكن لأننا كائنات أخرى ، وذلك لأننا أكثر من أن نكون فقط مناطقة وميتافيزيقيين . ولكن هذه الاضافة تبدو للمفكر الميتافيزيقي على أنها نقص وهذا السلب (النفي) لفن التفكير كأنه سلب مطلق . والطبيعة بالنسبة له ليست إلا المقابل للعقل . وهو يجعل من هذا التعريف المجرد والسلبي تعريفها الايجابي وجوهرها وبالتالي فإنه من التناقض أن يعتبره كائناً إيجابياً ذلك الكائن أو بالاحرى ذلك اللاكائن الذي ليس إلا سلباً لفعل التفكير والذي يعتبر شيئاً متخيلاً ولكن طبقاً لطبيعته فإنه يكون موضوعاً للحواس وهذا يتعارض وفعل التفكير والعقل . والكائن الذي يوجد في الفكر بالنسبة للمفكر هو الجوهر الحقيقي وعلى هذا فإنه يكون واضحاً بذاته له والكائن الذي لا يوجد في الفكر لا يمكن أن يكون جوهراً صحيحاً خالداً أصلياً . وهذا يتضمن بالفعل تناقضاً بالنسبة للعقل لكي يفكر في نقيضه فقط فهو يكون منسجماً مع نفسه عندما يفكر في ذاته فقط (من وجهة نظر التأمل الميتافيزيقي) أو على الأقل (من وجهة نظر التأليه) عندما يفكر في جوهر لا يعبر إلا عن طبيعة فعل التفكير والذي لا يعطيه لنا سوى الفكر والذي لا يكون

في حد ذاته إلا كائناً متخيلاً . وهكذا فإن الطبيعة تختفي لتصبح لا شيء . ومع هذا فإنها لا تزال موجودة مع أنها طبقاً للمفكر لا تستطيع أو يجب أن تكـون . وحينئـذٍ كيف يمكن للميتـافيـزيقي أن يفسر وجـودها ؟ عن طـريق فقدان الـذات وسلب الذات وإنكـار الذات بالنسبة للعقل الذي هو عقل خلاق كـما هو واضـح ولكنه إن شئت الحقيقة فهو متناقض ومفروض على طبيعته الداخلية . ولكن إذا كانت الطبيعة من وجهة نظر التفكير المجرد تختفي لتصبح لا شيء فإنه من الناحية الاخرى ومن وجهة نظر الملاحظة والتأمل الحقيقيين للعالم فإن هذا العقل الخلاق يختفي ليصبح لا شيء . ومن وجهة النظر هذه فإن كل عمليات استنتاج العالم من الله والطبيعة من العقل والفيزيقا من الميتـافيزيقـا والحقيقي من المجرد قـد ثبت أنها ليست إلا مسرحيـات منطقية .

(26)

الطبيعة هي المـوضـوع الاول والاسـاسي للدين ، ولكنها تكـون هذا الموضوع حتى عندما تكون الموضوع المباشر والفوري للعبادة الدينية كما هـو في الديـانات الـطبيعية . وهي لا تكـون طبيعة بمعنى أبسط نمط manner والمعنى الذي ننظر فيه اليها من وجهة نظر التأليه أو الفلسفة والعلوم بالعكس الجوهر الذي ليس هو بشرياً على أنه جوهر مقدس. (من وجهة النظر المادية) لأنه يبدو كجوهر بشري .

(27)

وتحولة mutability الطبيعة ، خاصة في تلك الظواهر التي تؤدي

معظمها بالإنسان لأن يشعر باعتماده عليها ، هو السبب الرئيسي الذي يجعلها تظهر للإنسان على أنها كائن بشري متعسف والذي يجعله يعبدها دينياً . وإذا ما وقفت الشمس دائماً في السماء فإنه ما كان لها أبداً أن تضطرم نار العاطفة الدينية في الإنسان . وعندما كانت تختفي عن عين الإنسان وتصيبه بأهوال الليل ، وعندما كانت تعاود الظهور ثانية كان يركع الإنسان على ركبتيه أمامها ، وقد غلبته الفرحة لعودتها غير المتوقعة . وقد حيى قدماء Aplachites في فلوريدا Florida الشمس بترانيم عند شروقها وغروبها ، وتضرعوا اليها في نفس الوقت أن تعود وتباركهم بضوئها . وإذا ما كانت الارض تغل ثماراً دائماً ، فأين كان من الممكن أن يكون هناك دافع للاحتفالات الدينية وقت البذر والحصاد ؟ ونتيجة لتفتحها من جديد وإغلاقها لرحمها تبدو ثمارها على أنها عطاياها التي تهبها طواعية والتي تجبرالإنسان على أن يكون ممتناً لها . والتغيرات التي تحدث في الطبيعة تجعل الإنسان غير متيقن ومتواضعاً ومتديناً . فأنا غير متيقن ما إذا كان الطقس غداً سيكون مؤاتياً لتعهداتي ؛ وغير متيقن إذا ما كنت سأحصد ما بذرت وعلى هذا فإنني لا أستطيع أن أعتمد على عطايا الطبيعة مثل اعتمادي على جزية تقدم في وقتها أو على نتيجة معصومة من الخطأ . وحيث يكون اليقين الرياضي هدفاً ، يبدأ اللاهوت ، ويحدث هذا الآن حتى في العقول الضعيفة . فالدين هو تصور الضروري - أو العرضي - كما هو مفهوم الشيء التعسفي او الاختياري . والعاطفة المقابلة لذلك أي عاطفة عدم التدين وعدم الاعتقاد في اله يمثلها السيكلوب Cyclops عند يوريبدس عندما يقول : « إن الأرض يجب أن تثمر عشباً لإطعام قطيعي سواء كانت راضية أن تفعل ذلك أم لا » .

(28)

والشعور بالاعتماد على الطبيعة في اختلاطه مع تخيلها ككائن شخصي يتصرف بطريقة تعسفية هو الدافع للتضحية ، أكثر الافعال ضرورية للدين الطبيعي . والاعتماد على الطبيعة يكون محسوساً بالنسبة لي عن طريق حاجتي لها . فالحاجة هي الشعور والتعبير عن لا شيئية بدون الطبيعية ؛ ولكن الذي لا يمكن فصله عن الحاجة هو المتعة ، الشعور المقابل ، الشعور بوجودي الذاتي ، وباستقلالي متميزاً عن الطبيعة . وعلى هذا فإن الحاجة تكون نقية pious ومتواضعة humble الطبيعية . والطبيعة أصلية بالنسبة للإنسان بمعنى حينما ينظر هو اليها بنظرة دينية أكثر من كونها موضوعاً لصفاته الخاصة به فإنها تكون كائناً شخصياً حياً ذا شعور . وفي الاصل فإن الإنسان لا يميز نفسه عن الطبيعة ، وبالتالي لا يميز الطبيعة عن نفسه ؛ ولهذا فإن الاحاسيس التي يثيرها أي موضوع للطبيعة في الإنسان تبدو له في الحال على أنها صفات للموضوع .

وتنتج الآثار والاحاسيس الخيرة والنافعة عن طريق الطبيعة الخيرة والصالحة ، بينها الاحاسيس الضارة والمؤلمة مثل الحرارة ، والبرد ، والجوع والمرض والالم بواسطة كائن شرير ، وعلى الأقل الطبيعة ولكن في حالة مزاج شريرة أو حقد وغضب شديد . هكذا الإنسان طواعية ودون وعي لزام عليه ـ مع أن هذه الضرورة ليست إلا ضرورة تاريخية ونسبية ـ أن يحوّل جوهر الطبيعة إلى شعور، أي كائن بشري ذاتي ، ولا عجب حينئذٍ أن يقوم بتحويلها عن إرادة ومعرفة إلى

موضوع للدين ، والصلاة ، إلى موضوع يمكن أن تؤثر فيه عن طريق مشاعر الإنسـان ، وصلواته ، وشعائـره . وفي الواقـع فقد جعـل الإنسان الطبيعة فعلاً خادماً وأخضعها لنفسه عن طريق استيعابه لها في مشاعره وأخضعها لعواطفه . والى جانب ذلك فإن الإنسان الطبيعي غير المتعلم لا يفترض فقط انفعالات ودوافع وعواطف في الطبيعة ، بل انه يرى أناساً حقيقيين في الاجساد الطبيعية . وهذا هو ما يعتقده الهنود بخصوص الشمس ، والقمر والنجوم على أنها بشر في منطقة Orinoco نهم يقولون : « إن هؤلاء الموجودين عالياً هم أناس مثلنا» .

ويعتقد الباتجونيون Patogonians أن النجوم هي « الهنود الاوائل » ويعتقد اهل جرين لاند ان الشمس والقمر والنجوم كانت أسلافهم ، الذين انتقلوا إلى السماء . وهكذا اعتقد أيضاً المكسيكيون القدماء في إن الشمس والقمر اللذين عبدوهما كآلهة كانا أناساً في سالف العصور. وانظر التأكيد الموجود في كتابي « جوهر المسيحية » ان الإنسان في الدين من وجهة نظر الدين يتعامل مع نفسه فقط ، وان اله في الحقيقة « لا يعكس سوى جوهره الخاص » . وحتى فإن أكثر صور الدين بـدائية وجهلاً تؤكد هذا الافتراض حيث يعبد الإنسان أكثر الاشياء بعداً عنه ولا يوجد بينه وبينها تشابه مثل النجوم والاحجار والاشجار ، ليس هذا فحسب بل Claws of crabs مخالب السرطان ، وصدف القوقع ، وذلك لأنه يعبدها لأنه يحول نفسه اليها ويعتقد انها كائنات مثله ، أو على الاقل يسكنها كائنات مثله . وعلى هذا فإن الدين يظهر التناقض الملحوظ والذي يمكن فهمه بسهولة ، ليس هذا فحسب بل أيضاً التناقض الضروري الذي يعبد فيه الجوهر البشري كجوهر مقدس من ناحية (وجهة نظـر التأليـه والانتربولـوجي) لأنه يبـدو الجوهـر مختلفاً عن

الإنسان لانه كجوهر ليس بشرياً ، ومن ناحية أخرى فإنها تعبد ومتدينة religious ، بينما المتعة تكون متغطرسة haughty ولا الهية ungodly وخالية من الاحترام وطائشة. ومثل هذا الطيش، أو على الأقل الافتقار إلى الاحترام في المتعة ،هو ضرورة عملية للإنسان ، وهو ضرورة مبني عليها وجوده ولكنها ضرورة تتناقض تناقضاً مباشراً مع احترامه النظري للطبيعة على انها كائن حساس أناني egotistic الذي يعاني بأقل من القدر الذي يعاني به الإنسان إذا ما أخذ شيئاً منها . وعلى هذا فإن السيطرة appropriation أو استخدام use الطبيعة يبدو للإنسان ، كما لو كان استيلاء على حقها أو استغلالاً لمتلكات شخص آخر ، أو انتهاك outrage لها . ومن أجل أن يريح ضميره ويتخلص أيضاً من موضوع اعتدائه التخيلي ؛ ومن أجل أن يظهر أن سرقته robbery ترجع أصلاً إلى حاجته ، وليس إلى عجرفته ، فإنه يقلل من متعته ويعيد الى الموضوع جزءاً من ممتلكاته المسلوبة . ولهذا كان الاغريق يعتقدون بأنه إذا قطعت شجرة ، فإن روحها تنوح وتصرخ مستغيثة بالقدر لتنتقم من المعتدي . وبالتالي فإنه ما كان للروماني أن يغامر بقطع شجرة في أرضه دون أن يضحي بخنزير لاسترضاء الاله أو الالهة في بستانه . وهكذا كان يفعل Ostiaks بعد أن يذبحوا الدب يعلقون جلده على شجرة ويعطون له كل أشكال التوقير ، ويعتذرون بأفضل ما يستطيعون للدب لقتلهم إياه : « وهم يعتقدون في هذا بطريقة مهذبة كي يتحاشوا الضرر الذي من المحتمل أن توقعه عليهم روح الحيوان » وهكذا تسترضي قبائل أمريكا الشمالية أرواح الحيوانات المذبوحة باحتفالات مشابهة ويقوم الفلبينيون بسؤال السهول Plains والجبال طالبين الاذن إذا ما رغبوا في أن يعبروها

واعتبروا ان قطع أي شجرة عتيقة جريمة . وبالكاد يجرؤ البرميون Bramin على أن يشربوا ماء أو يطأوا الأرض بأقدامهم ، لأن كل خطوة ، وكل جرعة ماء تسبب ألماً وموتاً لكائنات حساسة ، نباتية وحيوانية ، ومن هنا يجب عليه « أن يكفر عن ذلك حتى يعوض موت المخلوقات التي يمكن أن يحطمها نهاراً أو ليلاً مع أن هذا يتم دون وعي »[6] .

(29)

والتضحية تقدم الجوهر الكلي للدين بصورة حسية . ومصدرها هو الشعور بالاعتماد (الاتكال) dependence والخوف fear والشك doubt وعدم اليقين من النجاح وأحداث المستقبل ، وتأنيب الضمير بسبب ارتكابه خطيئة ، ولكن النتيجة وغرض التضحية هو الوعي بالذات ، والشجاعة والمتعة ، والتيقن من النجاح والحرية والسعادة . وكعبد للطبيعة فإني الاحظ التضحية ؤكسيد لها فإنني أبتعد عن ذلك . وعلى هذا ، ورغم أن الشعور بالاعتماد على الطبيعة هو مصدر ودافع الدين : فإن غرضه وغايته هو تحطيم مثل هذا الشعور والاستقلال عن الطبيعة . أو مع أن قدسية الطبيعة هي أساس وقاعدة الدين عموما والدين المسيحى خصوصاً فإن غايتها هي قدسية الإنسان .

(6) في هذا الصدد يجب علينا ان نذكر القواعد العديدة للسلوك التي تفرضها الديانات القديمة على الإنسان في تعامله مع الطبيعة حتى لا يدنسها أو يتعدى عليها ولذلك فلم يكن لعابد من عباد Ormuzd الحق أن يمشي حافي القدمين على الارض لأن الارض مقدسة كما أنه لم يكن مسموحاً للاغريق أن يعبروا نهراً وأيديهم غير نظيفة .

(30)

والافتراضات المسبقة للدّين هي التناقض بين الارادة Will والمقدرة ability ، الرغبة والاشباع ، النية والنجاح ، التخيل والواقع ، الفكر والوجود . والإنسان لا يحده شيء في رغباته وفي تخيله ، فهو في هذا المجال اله قدير ؛ ولكن في قدرته ، وواقعه فهو إنسان محكوم ، ومعتمد على غيره ، ومحدود ، والإنسان باعتباره كائناً محدودا ، يتناقض مع الله . وكما تقول الحكمة « العبد في التفكير والرب في التدبير » أو كما يقال « أنتَ تريد والله يفعل ما يريد » ، « الإنسان يخطط بينما ينجز جوبيتر Jove بطريقة أخرى » فالفكر والارادة ملكي ، لكن ما أفكر فيه وأريده ليس ملكي ، وهو يقع خارجي ولا يعتمد عليّ ، ويميل الدين إلى تحطيم مثل هذا التناقض أو التعارض فهذا هو غرضه وذلك الكائن الذي يحطم ذلك فيه ، والذي أرى أن ما أرغبه وما أتخيله فيه ممكن ، مع أن قوتي المحدودة تثبت أن ذلك مستحيل بالنسبة لي ، ان هذا الكائن ليس واقعياً فحسب بل إنه الكائن المقدس .

(31)

سبب الدين الاساسي والملائم ، أو سبب الاله هو ذلك الشيء المستقل عن إرادة الإنسان ومعرفته . يقول بولس Paul : « لقد زرعت نبات أبوللوس وسقيته ، ولكن الله هو الذي أعطى أكثر I have planted Apollos, watered, but God gave the increase » . فهو إذن لم يزرع أي شيء ولم يروِ أي شيء ، وإنما الله هو الذى اعطى الزيادة . ويقول لوثر Luther : « يجب علينا أن نمدح الله ونشكره لأنه

هو الذي يتحمل أعباء نمو البذرة ، وان نعترف أنها ليست نتاج جهودنا ، وإنما هي بركته وعطاياه : ان يمنحنا الخمر وكل أنواع الفاكهة التي نأكل ونشرب منها لسد حاجاتنا». ويقول هزيود Hesiod : « ان المزارع الجاد يجني ثماره إذا أراد منحه جوبيتر ذلك ، يعتمد إذن حرث لارض ، وغرسها وريها عليّ كإنسان ، بينما النجاح لكل هذه العمليات ليس في يديّ وإنما في يد الله ، ولذا فإنه قيل : « أن بركة الله هي الشيء الاساسي » . ولكن ما هو الله»، ليس في الاصل سوى الطبيعة ، أو جوهر الطبيعة ، ولكن الطبيعة كموضع للعبادة ، وككائن رؤوف ذي إرادة . جوبيتر هو سبب أو أصل المظاهر الطبيعية المتعلقة بالاحوال الجوية ؛ ولكن هذا لا يمثل بعد قداسته أو سمته أو طبيعته الدينية ؛ لأن غير المتدينين قد يعتقدونه سبباً للمطر وللعاصفة الرعدية وللجليد . إنه الاله فقط لان كل هذه الظواهر تعتمد على إرادته الخيرة ولذا فإن كل ما يستقل عن إرادة الإنسان يعتمد على إرادة الله فيما يتعلق بالشيء ذاته أي بصفة موضوعية أما الصفة الذاتية فإن هذا الشيء يعتمد على صلوات الإنسان لأن ما يعتمد على الارادة يمكن نغيره بالصلاة له . « حتى الالهة قابلين للتغير Even the Gods are pliable . يمكن للزائل ان يغير من تفكيره أو عقله وذلك عن طريق القسم أو الطقوس الدينية أو البخور » .

(32)

الهدف الوحيد أو على الاقل الموضوع الاساسي للدين هو موضوع أغراض الإنسان وحاجاته ، وهو موضوع يتعدى فيه الإنسان حدود التخبط النهائي والعجز أو المصادفات الى الفتشيه Fetishism الحقة .

ولهذا السبب بالذات فإن هـذه الكائنـات الطبيعيـة الضرورية جـداً للإنسان والتي لا يمكنه الاستغناء عنها حازت قـدراً كبيراً للغـاية من العبادة الدينية . ولكن ما تعتمد عليه حاجات الإنسان وأغراضه ، يعد لنفس السبب أماني إنسانية ، فأنا أحتاج إلى المطر وأشعة الشمس لنمو نباتاتي ، وفي زمن الشـح (شح الميـاه) أتمنى الغيث وفي وقت المطر الغزير أتمنى أشعة الشمس، تلك رغبة لا أمتلك سبيلاً لتحقيقها، إرادة ليست لي القدرة على تحقيقها على الاقل في وقت ما وفي ظروف ما وهي إرادة يحاول الإنسان تربيتها من خلال الدين . ولكن ما لا يستطيـع جسدي ، وقدرتي بصفـة عامـة ، إن تحققه يكـون في متناول قـدرة امنيتي ، ما أحتاج إليه وما أصبو اليه ، أحاول الوصول اليه بالتضرع إلى الالهة[7] . في حين أنه عندما يكون الإنسان تحت تأثير بعض المظاهر الدينية فقط في تأثيرات الشعور ، فإنه يضع جـوهره دون أن يضع ذاته ؛ فهو يعامل الجماد ومن ليس له إرادة على إنه تنبعث منه الحياة ، وكشيءذي إرادة ؛ ويبعث الحياة في اشياء بتنهداته ، لانه لن يتأتى له أن يتكلم مع هذا الشيء غير العاقل إلا في ظل هذه الظروف . والشعور لا يقصر نفسه داخـل الحدود التي يمليهـا عليه العقـل وإنما يتعدى ذلك حتى ان صدر الإنسان يضيق بهذا الشعور ؛ فيجب عليه أن ينقله الى العالم الخارجي وبهذا يجعل من جوهر الطبيعة غير الناطقة شيئاً عطوفاً . الطبيعة وهبت الحياة بالشعور الإنساني ، طبيعة تتفق مع هذا الشعور وتذوب في داخله بمعنى « أن الطبيعة ذاتها ممنوحة الشعور ، الطبيعة موضع للدين كائن مقدس » ، « الرغبة هي في الاصل جوهر

(7) كان تعبير للتمني في اللغة الالمانية القديمة مساوياً في المعنى لتعبير يسحر Snchant .

الدين ـ فجوهر الآلهة ليس إلا جوهر هذه الرغبة »[8] الالهة أناس خارقون Superhuman وكائنات خارقة ؛ ولكن ألسنا نرغب أو نتوق إلى الإنسان الخارق أو الطبيعة الخارقة ؟ فعلى سبيل المثال ألا أتمنى ألا يجول بخيالي وأنا ما زلت أنساناً ، أن أكون كائناً خالداً ، متحرراً من كل القيود المادية والجسدية ؟ لا ! ان من ليست لديه أمان ليست له آلهة . لماذا ركز الاغريق على الخلود وسعادة الالهة ؟ لانهم أنفسهم لم يرغبوا ان يكونوا فانين أو تعساء . فحيث لا يوجد نواح وصياح على فناء الإنسان وتعاسته لا تسمع الصلوات التي تكرم الآلهة الخالدة والسعيدة فالدموع التي تذرفها القلوب تتبختر في سماء الخيال وتستحيل إلى سحابات تصور الكائن المقدس ومن هذا المجرى الكبير ومن هذه المحيطات من الدموع اشتق هومر الالهة ولكن هذا المجرى الذي يموج بالالهة ليس في الحقيقة إلا مجرى لمشاعر الإنسان .

(33)

المظاهر غير الدينية للدين تكشف النقاب عن جوهر الدين وأصله

(8) كانت الآلهة القديمة خيرة . وكان الخير هو النتيجة والثمرة غاية الفعل الذي أرغب ، وهو منفصل عني ويقول لوثر أن تبارك شيئاً معناه أن ترغب في شيء خيراً ، وإذا باركنا فإننا لا نفعل شيئاً آخر سوى اننا نتمنى شيئاً خيراً ولكنه ليس في إمكاننا أن نحقق رغباتنا بذاتنا وإنما يحققها الله ويثبت تأثيرها وهذا يعني أن الناس كائنات قادرة على التمني ، أما الالهة فهي تحقق هذه الاماني وهكذا فإنه حتى في الحياة العادية فإن كلمة الله التي تستخدم بصفة متكررة ليست شيئاً سوى التعبير عن الاماني « منحك الله اطفالاً » يعني اتمنى لك أطفالاً . والفرق بين هاتين الجملتين هو ان الجملة الاخيرة بها كلمة أتمنى التي تعبر عن الذات وهي ليست كلمة دينية بينها الجملة الاولى فهي جملة دينية موضوعية .

بطريقة واضحة . ومن هذه المظاهر غير الدينية للدين والتي كانت موضع نقد من قبل الاتقياء الوثنيين .أن الإنسان . بصفة عامة يلجأ إلى الدين ويتضرع إلى الله فقط في أوقات المحن ؛ ولكن هذه الحقيقة بذاتها توضح لنا مصدر الدين . ففي المحنة يدرك الإنسان الم عدم قدرته على تحقيق رغباته - سواء كانت هذه المحنة محنته أو محنة الآخرين - فهو يجد يده مغلولة ، ولكن الآلام العصبية ليست هي في نفس الوقت الآلام الحسية ، اغلال fetters قدرته ، الطبيعة ليست هي في نفس الوقت أغلالاً على إرادتي أو قلبي ، وعلى العكس ، فكلما كانت يداي مقيدتين كلما تحررت الاماني ، وكلما ازدادت الرغبة في الخلاص ازدادت قدراتي أو طاقاتي وبحثي عن الحرية وأصبحت إرادتي غير محدودة وقوة القلب الإنساني أو إرادته تتأثر بحزنه والتي بولغ فيها إلى حد اعتبارها انساناً خارقاً للعادة تلك هي قوة الالهة غير المحدودة . الالهة قادرة على فعل ما يرغب فيه الإنسان ؛ بمعنى إنها تطيع قوانين قلب الإنسان . فعلاقة الإنسان بروحه ، تعادل علاقة الالهة بالعالم المحسوس؛ فما يستطيع أن يفعله الإنسان في حيز إرادته وخياله وقلبه في لمحة بصر وفي أي مكان بعيداً كان أو قريباً هو نفسه ما تستطيع الالهة أن تفعله في العالم الطبيعي . فالالهة تجسيد لرغبات الإنسان وإذا تحطمت القيود الطبيعية لقلب الإنسان وإرادته ، يصير الإنسان كائناً ذا قوة غير محدودة تعادل قدر المحسوسة قدرة الارادة . والظواهر غير الدينية لهذه القوة « الخارقة للطبيعة » للدين تتمثل في ممارسة السحر بين الشعوب المتخلفة ، حيث تظهر الارادة المجردة بشكل ملموس في صورة آلهة تفرض سلطانها على الطبيعة . ولكن عندما أمر إله إسرائيل تلبية لرغبة Elyah's أمر الشمس أن تتوقف عن الحركة والسماء أن تمطر

طبقاً لرغبة Joshua's ، أو عندما قام المسيح بشفاء المرضى وإحياء الموتى لاثبات قداسته وقدرتـه على تحقيق كـل رغبات الإنسـان ، وفي هذا الموضع ، أي في المسيحية ، أو في ممارسة السحر تظهر الارادة المجردة أو الرغبة المجردة أو الكلمة المجردة القدرة التي تتحكم في الطبيعة . والفرق الوحيد هو أن الـدجال السـاحر Sorcerer يحقق بـطريقة لا دينية ، في حين يحقق اليهودي Jew أو المسيحي نفس الهدف بطريقة دينية ، ففي حين يضع الساحر القدرات داخل ذاته يجسم المسيحي أو اليهودي هذه القدرات في صورة الالهة وفي حين يحاول الساحر تأكيد ذاته وقدرتـه يحاول المسيحي أو اليهـودي إظهار إرادة خـارقة لإرادة عليا . وباختصار يقوم الساحر بالعمل من أجل ذاته وبنفسـه ويقوم المسيحي أو اليهودي بذلك من أجل الله وبالله quod quis per alium fecit ipse fecisse putatur ، ولكن المثل الشائع ـ القائل أن ما يفعله الإنسان من خلال إنسان آخر يرجع الناس الفضل فيه للاول ـ ينطبق على هذا الموقف ؛ ومعناه أن الإنسان يفعل من خلال الله ما يفعله الله في الحقيقة بنفسه .

(34)

ليس للدين وظيفة أو ميل ، على الاقل فيما يتعلق أساساً بالطبيعة سوى تغيير أصل الطبيعة غير المعـروف الى أصل شـائع ومعـروف ؛ بالاذابة melt الطبيعة التي هي في ذاتها وصلبة كالحديد في وهج نـار القلب من أجـل الاهداف الإنسـانيـة ؛ بمعنى أنها لهـا نفس هـدف الحضارة التي تهدف إلى أن تخلق من الطبيعة بصفة نظرية كائناً قابلاً للتشكيل وللتواؤم مع رغبات الإنسان ، وما تحاول أن تصل إليه الثقافة

بوسائل اكتسبتها من الطبيعة ، يصل اليه الدين ، دون هذه الوسائل ، أو من خلال الوسائل الخارقة ، كالصلاة والايمان والقداسة والسحر . وهكذا نجد كل شيء يتقدم بحضارة البشرية أصبح سبباً للنشاط ، وللنشاط الذاتي والانثربولوجي ، بعد أن كان سبباً للدين أو اللاهوت ؛ والامثلة على ذلك هي : السياسة والطب وقانون الإنسان كمكونات للحضارة والتي كانت لا تزال حتى الآن بين الشعوب غير المتحضرة مرتبطة بالدين[9] . هذا حق ان الحضارة والثقافة غالباً ما تعجزان عن تلبية رغبات الدين ، إذ أنه لا يستطيع تحطيم حدود الانسان التي تستمد أساسها من طبيعته . وهكذا تنجح الثقافة في تحسين علم إطالة الحياة prolongating ولكن هذا العلم لن يصل أبداً إلى تحقيق الخلود . وهذه الرغبة المطلقة التي لا يمكن تحقيقها تترك للدين .

(35)

في الدين الطبيعي يتوجه الإنسان بنفسه إلى شيء مضاد بطريقة مباشرة للارادة الاصلية ولمعنى الدين ؛ فهو هنا يضحي بمشاعره وفكره من أجل كائن هو نفسه بدون مشاعر أو تفكير . فهو يضع أعلاه ما يود أن يضعه في مكان أدنى منه ؛ وهو يعبد ما يتمنى أن يحكم ، ويعشق ما يكره في الحقيقة ، ويطلب العون ممن يبحث عن العون للوقوف ضده . وهكذا ضحى الاغريق في titane للرياح بتهدئة روعها ، وبنى الرومان معبداً للحمى حتى يتقوا شرها ؛ وهكذا صلى

(9) وقد كان الدين هكذا بين الشعوب غير المتحضرة في الأزمنة البدائية كان وسيلة للتحضر ولكن الدين في العصور المتحضرة يمثل سبب الوقاحة rudeness وهو معاد للتعليم .

tungusians في وقت الوباء باخلاص وورع لهذا المرض الذي كـاد يودي بحياتهم وبنفس الطريقة ضحى الـ Widahians في غينيا للبحر الثائر وتوسلوا إليه بأن يهدأ وان لم يمنعهم ذلك من اصطياد الأسماك؛ وهكذا أيضاً خاطب الهنود الوجود، الله، الروح عند قدوم الريح عند معبر مياه Monitou وتوسلوا اليه أن يحميهم من كل الاخطار ، وعلى هذا المنوال أيضاً وبصفة عامة لا تعبد الامم الخير وإنما تعبد جوهر الشر الكامن في الطبيعة أو على الأقل ما يبدو لهم كذلك[10] . ومن وجهة نظر الدين الطبيعي يعلن الإنسان حبه لتمثال ما بجسد خامدa corpsa ، ولا عجب في أن يلجأ الإنسان إلى وسائل تنم عن اليأس والاختلال العقلي حتى يجعل نفسه مسموعاً ، ولا عجب في أن ينزع الإنسان من نفسه إنسانيته لتهدئة روع الطبيعة، فهو قد يذهب إلى حد سفك دماء أخيه الإنسان حتى يستطيع أن يلهم الطبيعة بالمشاعر الانسانية .

وهكذا اعتقدت شعوب ألمانيا الشمالية أن التضحية الدينية يمكنها أن تهب التماثيل الخشبية اللغة والمشاعر الإنسانية ، كما اعتقد الالمان أنهم يستطيعون أن يغدقوا الإيمان واللغة والقداسة للاحجار التي يعبدونها ، ولكن باءت كل المحاولات التي بذلوها لكي يهبوها الحياة بالفشل فالطبيعة لا تستجيب لعويل الإنسان وطلباته وإنما ترجعه إلى نفسه دون رحمة .

(36)

والحدود التي يتخيلها الإنسان في عقله أو على الاقل يتخيلها من وجهة النظر الدينية ، ليست حدوداً بالمعنى المفهوم إلا في خياله وعقله

(10) وفي هذا المجال أيضاً يمكننا أن نناقش عبادة الحيوانات الضارة .

لأنها لها جذورها في جوهر وطبيعة الأشياء وهذه الحدود هي السبب في أنه لا يستطيع التنبؤ بالمستقبل ، أو أن يعيش الى الابد أو أن يتمتع بالسعادة دوماً ، أو أن يكون له جسم بلا وزن أو أن يخلق مثل الهة أو أن يضع وعداً مثل جوبيتر أو أن يضيف شيئاً الى حجمه ، أو أن يجعل من نفسه كائناً غير مرئي ، أو أن يعيش مثل الملائكة ، دون رغبات حسية ، أو باختصار ، أن يفعل ما يريد وما يرغب ـ وبنفس الطريقة يوصف الكائن المتحرر من كل القيود، الكائن المقدس المطلق، الكائن ذو الخيال ، والكائن ذو الميل العقلي الذي يتحكم فيه الخيال ، ومهما يكن الشيء الذي هو موضع العبادة سواء كان قوقعةsnail shell أو حصاة pebble فهو يكون «مخلوقاً له قلب وخيال قادر على التأمـل . وهذا ما يبرر القول الاكيـد أن الإنسان لا يعبـد الاحجار لـذاتها أو الاشجار لذاتها أو الحيوانات لذاتها ، أو الانهار للذاتها ، وإنما يعبـد الالهة المتجسدة فيها ، يعبد الارواح ولكن هذه الارواح التي جسدها الإنسان في هذه الأشياء ليست إلا إنعكاس خياله » .

تماماً كـروح الميت التي هي صورة خيالية تعيش في ذاكرتنا والتي يتخيلها الإنسان المتدين على أنها أشياء وجدت من قبل ، يتخيلها ذلك الإنسان الذي لا يفرق بين الشيء وفكرته ، والـذي يعتقد أن هـذه الاشياء حقيقية ، وموجودة وهذا الخداع الارادي للنفس ، لـلإنسان التقي يدخل من وجهة النظر الدينية في نطاق الدين الطبيعي كحقيقة واقعة ، داخل الإنسان لأن الإنسان في هذا الموضع يهب الاشياء ذات الطابع الديني عيوناً وآذاناً ، يعرف أنها عيون وآذان غير طبيعية ومع ذلك يعتقد بوجودها ولذا فإن عيون الإنسـان المتدين ليست للرؤيـة وعقله موهوب له ليس للتعليل . والدين الطبيعي هو تناقض واضح

بين الفكرة والواقع بين الخيال والحقيقة . فما هو في الواقع حجر أو قطعة من الخشب ليس بها حياة يعد من وجهة النظر الدينية حياً . وفي الظاهر ليس هناك إله وإنما شيء مختلف تماماً ومع ذلك لا نراه على حسب ما يعتقدون ولذا فإن الدين الطبيعي معرض بصفة دائمة لعدم التصديق أنه لا يمكنه الصمود أو الاستمرار على سبيل المثال حيث لا تنساب الدماء من شجر نعبده ولذا فإن هذا الشجر ليس كائناً مقدساً من يقطن بداخله ، ولكن كيف يتخلص الدين من هذا التناقض الشنيع الذي قد يتعرض له من قبل الطبيعة ؟ يواجه الطبيعة فقط بخلق شيء غير مرئي وغير محسوس ، وجعل هذا الشيء موجوداً في عالم الايمان والتأمل والخيال ، وبالاختصار داخل عقل الإنسان الذي هو بدوره كائن روحي .

(37)

بمجرد ان يعتنق الإنسان مبدأ سياسياً من الكائن الخير المحسوس أو بصفة عامة من كائن يميز نفسه عن الطبيعة ، فإن الإنسان يركز نفسه في داخله ، كما يتغير الاله الذي يعبده من اله طبيعي إلى كائن سياسي يختلف تماماً عن الطبيعة . إن ما يرشد الإنسان إلى تمييز جوهره عن الطبيعة وبالتالي تمييز الهه عن الطبيعة ، هو ارتباطه مع أناس آخرين ، بمجتمع تتميز فيه القوى التي يعي بها وشعوره بالاعتماد على قوى الطبيعة وتتجسد هذه القوى في فكره وخياله فقط كالقوى السياسية والاخلاقية المجردة مثل : قوة القانون ، والرأي العام[11] والشرف والفضيلة ـ في حين يحتل وجوده الطبيعي مكانة ثانوية بالنسبة لوجوده

(11) قال هزيود بوضوح أن الشهرة والشائعات والرأي العام تمثل آلهة .

الإنساني والسياسي والاخلاقي . وحيث تنحدر قوة الطبيعة ، وقوة الموت والحياة ، تنحدر إلى أداة للقوى السياسية والاخلاقية . جوبيتر هو اله البرق والرعد ، ولكنه يمتلك هذه الاسلحة الجبارة ليخضع من يعارضون أوامره ، وجوبيتر هو أبو الملوك « الذي انحدرت الملوك منه» . وهكذا يمتلك جوبيتر عن طرق البرق والرعد قوة وهيبة الملوك[12] ونقرأ في كتاب القانون Menu أن « الملك يحرق العيون والقلوب كالشمس ، وهكذا لا يستطيع مخلوق بشري على الارض أن ينظر اليه . فقوامه نار وهواء ، وهو الشمس والقمر وهو اله قوانين الاجرام . والنار تحرق ذلك الشخص فقط الذي يقترب منها بينما نار الملك عندما يغضب تحرق أسرة بأكملها بما في ذلك ما تمتلكه من ماشية وغيرها» . « في شجاعة الملك اقتناص وفي غضبه موت » ، وبنفس الطريقة أمر اله الاسرائيليين رعاياه أن يمشوا بين البرق والرعد ، في الطرق التي أمرهم بها كي تزدهر حياتهم ويمتد بهم البقاء في الارض . وهكذا تختفي قوة الطبيعة وشعور التبعية لها أمام القوى السياسية والاخلاقية .

---

(12) وعلى الرغم من ذلك فإن الملوك الاصليين يجب تمييزهم عما يسمى الملوك الشرعيين لان الملوك الشرعيين باستثناء حالات شاذة فردية كانوا في الاصل أفراداً عاديين ليسوا على جانب كبير من الاهمية في حين كان الملوك الأصليون أفراداً تاريخيين غير عاديين ومميزين . وتأليه البشر المتميزين وخاصة بعد موتهم يشكل انتقالاً طبيعياً من الديانة الطبيعية إلى الديانات الميثولوجية والانثربولوجية على الرغم من أن هذا الانتقال قد يحدث في نفس الوقت عن طريق عبادة طبيعية . وعبادة البشر المتميزين على الرغم من ذلك ليست بأي حال من الأحوال مقصورة على عصور الرخاء ، وهكذا جعل السويديون من ملك ارش Erich الهاً في عصر المسيحية وكانوا يقدمون له القرابين بعد موته .

وفي حين تخفي أشعة الشمس عن عابد الطبيعة كل شيء حتى انه يصلي للشمس كل يوم مثل Katehinian ويتضرع اليها بألا تقتله ، تخفي الاهواء السياسية عن عيون تابعيها أيضاً كل شيء حتى انهم يركعون أمامها كقوة مقدسة لأن لها الامر والنهي في بقائهم أو موتهم ، والدليل على ذلك الالقاب التي كان يلقب بها أباطرة الرومان والتي ما زالت باقية بين المسيحين ، ومن ضمن هذه الألقاب : «قداستكم Your divionity » ، خلودكم Your eternity وحتى هناك بعض الالقاب في هذا المضمار بين المسيحيين اليوم مثل : « فخامتكم » Majesty و« قداستكم » Holiness وكل هذه الالقاب التي كانت تلقب للالهة هي القاب للملوك ، وفي الحقيقة يحاول المسيحي أن يبرر هذا ويعزوه إلى أن الملك هو ممثل الله في الارض ، وان الله نفسه هو ملك الملوك ولكن هذا التبرير ليس سوى خداع . وفي حين أن قوة الملك محسوسة مجسدة في ذاتها فإن قدرة ملك الملوك هي مجرد قدرة غير مباشرة فالله يعرف بأنه حاكم هذا العالم ككائن ملكي أو كائن سياسي بصفة عامة حيث يقوم هذا الكائن الملكي بحكم الإنسان والتأثير فيه حتى يوعز اليه بعبادته ككائن خارق ، يقول Menu : « انشأ براهما في بداية رسالته العقاب متجسداً في صورة نور خالص واعتبره ابناً له بل اعتبره المؤلف [الخالق] auther أو المستبد العادل كحام حامي كل المخلوقات» .

والخوف من العقاب يمكن هذا العالم من الاستمتاع بسعادته « وهكذا يقدس الإنسان قوانين العقاب الجنائية ، والقوى الحاكمة للعالم ، والنظام الجنائي في ذاته هو نظام Code الطبيعة ، فلا عجب أنه يجعل الطبيعة تتراحم أو تتعاطف مع أهوائه ومتاعبه السياسية ، حتى أنه يجعل المحافظة على هذا العالم معتمدةً على المحافظة على العرش

الملكي أو المحافظة على البحر المقدس . فما يهمه ، بالطبع يهم كل الكائنات الاخرى ؛ وما يحجب الضوء عن عينيه يحجب أشعة الشمس البراقة ؛ وما يجيش في صدره ، يحرك السموات والأرض،والوجود بالنسبة له هو الكائن للكون وهو وجود العالم ووجود كل الموجودات» .

(38)

لماذا لا يمتلك الشرق حياة متقدمة حديثة كالتي يمتلكها الغرب ؟ لأنه في المشرق لا تختفي الطبيعة وراء الإنسان ، ولا يختفي بريق النجوم والاحجار الكريمة وراء بريق العيون ، ولا يختفي الضوء المنبعث من الرعد بالضوء الذي ينبعث من خيال الإنسان ولا يشغله مسار أحداث الحياة اليومية عن مسار الشمس ، ولا يشغله تغير الموضع بتغير الفصول ، حقاً يخضع الإنسان الشرقي ويركع على قدميه في التراب أمام العظمة الملكية ، والقوة السياسية ، ولكن هذه العظمة التي يخضع لها ليست إلا إنعكاساً للشمس والقمر ، فالملك موضع إعجابه ، إعجاب لا ينبعث من عوامل أرضية ولا بشرية ، إنما إعجاب سماوي مقدس ، ولكن الإنسان يختفي بجانب الله ،ويثبت الإنسان ذاته بدون حرج كإنسان ويضع نفسه في المقدمة في الارض التي تخلو من الآلهة وحيث تصعد الالهة إلى السماء وتستحيل من كائنات محسوسة إلى كائنات خيالية ؛ هناك فقط يتوفر للإنسان المكان room ، هناك علاقة مشابهة بين الرجل الجاد في الشرق والرجل في الغرب كعلاقة المزارع بسكان المدينة . ففي حين يعتمد المزارع على الطبيعة ، يعتمد الآخر [ساكن المدينة] على الإنسان ، وفي حين يعتمد المزارع على التغيرات لطبيعية يعتمد سكان المدينة على الدولة والاقتصاد ، وترتبط حياة

المزارع بالاجرام السماوية ترتبط حياة سكان المدينة بالتحديث والرأي العام . ولذا فإن سكان المدينة فقط هم يضعون التاريخ القائم على الباطل ويستطيع أن يضع الاحداث التاريخية من يضحي بقوى الطبيعة في سبيل الرأي وفي سبيل الحياة أو يضحي بحياته في سبيل السمعة ، وان يضحي بوجوده المادي في سبيل أن تتذكره الاجيال القادمة .

(39)

وطبقاً لاثناسيوس Athenaeus كاتب الكوميديا الاغريقي خاطب أنكسندر Anaxandrides المصريين هكذا قائلاً : « أنا لا أناسب مجتمعكم ؛ فعاداتنا وقوانينا لا تتفق ـ فأنتم تعبدون العجل Ox الذي أضحي به للآلهة ، وثعبان السمك يمثل لكم الهة عظيمة ، بينما هو مصدر إشمئزاز لي ، وأنتم تبتعدون عن لحم الخنزير ، إلا أنني أتمتع بأكله وتكنون الاحترام والتبجيل للكلب في حين أقوم بضربه إذا اختطف فتات العيش مني ، وتقوم ثائرتكم إذا حدث شيء لقط ،في حين أكون سعيداً بهذا الذي حدث له ، بل انني أقوم بسلخ جلده عنه ، إنكم تولون المزيد من الاهتمام للفأر في حين لا أعجب به » .

هذا الحديث يجسد تجسيداً تاماً الفرق المحدود واللامحدود ، أي أن بين المتدين صاحب الدين الطبيعي ومن لا يعبأ بالدين الطبيعي . فالطبيعة هناك ، أي في الشرق موضع عبادة ، في حين أنها هنا مصدر متعة ؛ والإنسان هناك موجود للطبيعة أم هنا فالطبيعة موجودة من أجل الإنسان وهناك [في الشرق] الطبيعة هي الغاية ، في حين أنها هنا وسيلة ، والطبيعة هناك تعلو على الإنسان في حين أنها هنا تخضع

له[13] . ولهذا السبب بالذات فإن الإنسان هناك يبدو غريباً ، بعيداً عن نفسه ، بعيداً عن قدره الذي يوجهه لنفسه فقط ، أما هنا فإن الإنسان متعقل ومركز على نفسه وواع بنفسه ، وهناك يقلل الإنسان من قيمة نفسه إلى مستوى الحيوان كما يقول هيردوت كي يثبت ولاءه الديني أو يضعه أمام الطبيعة ، أما هنا فيرتفع بدافع وعيه وقدرته وكرامته إلى مرتبة الالهة وهذا دليل واضح ، أنه يتساوى بالالهة السماوية ، وان دون مثل دم هذه الالهة ، وان الدم المعنوي للالهة هو دم من صنع الخيال الخصب وليس له وجود في عالم الطبيعة .

(40)

العالم والطبيعة يظهران للإنسان كما هما ، فهو يرى كما يتيح له خياله يرى مشاعره وتخيلاته بطريقة مباشرة ويقيس الحقيقة والواقع تلقائياً ؛ وتبدو الطبيعة « له كما يبدو هو لنفسه » وبمجرد أن يدرك الإنسان ان حياته تتطلب الاستعانة بقدراته الخاصة . على الرغم من وجود الشمس والقمر ، والسماء والارض ، والنار والماء ، والنباتات والحيوانات «وبمجرد أن يدرك ان الناس بغير حق من الالهة وانهم هم الذين يتسببون في تعاسة أنفسهم » على الرغم من وجود القدر ، وان المرض والتعاسة والموت نتاج للرذيلة ، وان نتاج الفضيلة هو الحكمة ، والصحة ، والحياة والسعادة وبناء على ذلك فإن القوى التي تؤثر في

---

(13) سأقارن هنا بين الاغريق والاسرائيليين بينما أوضحت في « جوهر المسيحية » الفرق بينهما ، هذا ليس تناقضاً على الاطلاق لانه عندما تختلف الاشياء فإن هذه الاشياء قد تتوافق في مجال المقارنة مع شيء ثالث ، أضف إلى هذا إن الاستمتاع بالطبيعة يتضمن أيضاً متعتها الجمالية والنظرية .

مصير الإنسان هي إرادتـه ، وتفكيره ، وبمجـرد أن يتخطى الإنسان المرحلة البدائية التي كانت تتحكم فيه العادات الطارئة وأصبح كائناً يقرر مصيره بناء على أسس وقواعد تتسم بالحكمة والعقـل ، عندئذٍ تظهر له الطبيعة ، والعالم كشيء معتمد على فكره وإرادته متأثر بهما .

(41)

حين يرتقي الإنسان بفكره وإرادته فوق الطبيعة فإنه يصبح خارقاً للطبيعة، ويصبح الاله أيضاً خارقاً للطبيعة ، وعندما ينصب الإنسان نفسه حاكماً على السمك في الماء والطير في الهواء وعلى كل الارض بما عليها من كائنات ، فإن حكم الأرض يبدو بالنسبة لـه أسمى الأفكار وأسمى آيات الوجود. ويكون موضع عبادته وبالتالي مـوضع تـدينه خالق هذه الطبيعة ، لان الخالق نتيجة ضرورية للحكم . وإذا كان اله lord الطبيعة هو خالقها مبدعها auther فإنها عندئذٍ ستكون مستقلة عنه في أصلها ووجودها وتكون قدرته محدودة وناقصة ـ لانه لو كـان قادراً على خلقها فلما لم يخلقها ؟ وحكمه لها مبنياً على الاغتصاب فقط وليس حكماً شرعياً . إنني أنتج فقط وأضع ما يقع في نطاق قوتي تماماً وأمتلك ولذا فإن حكم التحكم لا يعترف به إلا إذا كان الشيء من انتاجك أو من صنعك فهو يكون طفلاً لأنني أكون والده . كانت آلهة الوثنيين أيضاً سادة الطبيعة ، هذا حقيقي ، ولكنهم لم يكونوا خالقين لها ولذا كانوا حكاماً دستوريين محدودي السلطة ، ليسوا ملوكاً مطلقي الامر « بمعنى أن الوثنيين لم يكونّوا بعـد خارقـين للطبيعة أو أصحـاب قوة مطلقة » .

(42)

أطلق المؤلهون Theists على عقيدة وحدة الاله عقيدة خارقة للطبيعة من الاصل ، دونما اعتبار ان التوحيد نابع من الإنسان ، وان مصدر وحدة الاله هو وحدة الفكر والوعي البشري . العالم منتشر أمام عيني انتشاراً متنوعاً ، بلا حدود ولكن هذه الاشياء لا تحصى عدداً : كالشمس والقمر والنجوم والسماء والارض ، والقريب والبعيد ، الحاضر والغائب كل هذه الأشياء يحتويها عقلي . ذلك الكائن ذو العقل أو الوعي ، ذلك الكائن العجيب الخارق للطبيعة بالنسبة للرجل المتدين (أعني الرجل غير المتعلم) ، ذلك الكائن الذي لا يحد من قدراته الوقت أو الزمان أو المكان والذي لا يحد من قدراته أيضاً أي شيء والذي يشتمل على كل شيء وكل كائن لا يراه أحد ، ذلك الكائن ، وضعه الموحدون في مقدمة العالم ، وجعلوه سبباً له (للعالم) . الله يتكلم ، الله يفكر في العالم ، والعالم موجود وهو يقول ان العالم غير موجود ولا يفكر فيه ، إنه غير موجود ، إنني يمكنني في خيالي وبإرادتي ان أجعل كل الأشياء وبالتالي أن أجعل العالم نفسه يظهر أو يختفي ، هذا الاله خلق العالم أيضاً من العدم ، وإذا أراد إحالته الى العدم أيضاً فيكون لا شيء سوى تجسيد من قوة خيال الإنسان . بالنسبة لي يمكنني بإرادتي ان أتخيل العالم على أنه موجود أو غير موجود ، وان أؤكد وجوده أو أنكره . وهذا اللاوجود الذاتي المتخيل للعالم جعله الموحدون لا وجود حقيقياً موضوعياً . يجعل المشركون Polytheism وأصحاب الدين الطبيعي عامة الأشياء الحقيقية متخيلة . في حين أن الموحدين من جهة أخرى يجعلون الاشياء الخيالية والافكار أشياء

حقيقية ، أو يجعلونها جوهر العقل والارادة والخيال أو كائناً علوياً مطلقاً . يقول أحد اللاهوتيين : « إن قوة الله تمتد إلى قوة خيال الإنسان » ولكن أين حدود هذه القوى ؟ ما هو المستحيل على التخيل ؟ يمكنني أن أتخيل أي شيء موجود على أنه غير موجود وأي شيء غير موجود على أنه حقيقي ؛ وبالتالي فإني أتخيل هذا العالم على أنه غير موجود ، ومن ناحية أخرى أتخيل أكثر من عالم موجود . إن ما أتخيله على أنه حقيقة فهو ممكن . ولكن الله هو الكائن الذي لا يستحيل عليه شيء ، فهو خالق لعوالم لا نهاية لها وبيده ملكوت كل شيء يمكن أن نتخيله وهو في الواقع لا شيء سوى تجسيد أو تحقيق لخيال الإنسان ولفكره ولتأمله ، وهو في خيال الإنسان حقيقة واقعة وهو الكائن المطلق .

(43)

التأليه أو التوحيد ينبعان فقط من ربط الإنسان للطبيعة بنفسه ، لأن الطبيعة تخضع نفسها للإنسان دون إرادة أو وعي، تخضع نفسها ليس لكل ما يحتاجه فقط ووظائفه العضوية وإنما لكل اهدافه الواعية وملذاته وتنبع من حيث يجعل الإنسان جوهر هذه العلاقة وبالتالي يجعله نفسه هدفاً ومركزاً ووحدة للطبيعة[14]. وحيث يكون هدف الطبيعة خارج ذاتها ، فإن من الضروري أن يكون سببها وبدايتها خارجها وحيث

(14) يطلق أحد كتاب الكنيسة على الإنسان « الربط بين كل الاشياء لأن الله أراد أن يشمل الإنسان على كل العالم في وحدة واحدة نتيجة لذلك فإن كل الأشياء تتجمع وتتكاثف في سبيل مصلحته والإنسان بالتأكيد جوهر شخص للطبيعة هو هدف الطبيعة ولكن ليس هدفاً بالمعنى المنافي للطبيعة والخارق لها ، بالمعنى الغائي واللاهوتي» .

توجد الطبيعة فقط لاجل كائن آخر فبالضرورة أن توجد بواسطة كائن آخر وهو كائن كان يضع في اعتباره عندما خلق الطبيعة ، إن الإنسان سيتمتع بالطبيعة ويستفيد منها لخيره ومنفعته . ولـذا فإن « بـداية » الطبيعة تتوافق مع « الاله » حيث تتوافق أهدافها مع « الإنسان » أو بعبارة أخرى فإن المذهب القائل ان الله هو « خالق هذا العالم » مصدره ومعناه العقيدة القائلة بأن الإنسان هو « هدف الخلق » . لو شعرت بالخجل من الاعتقاد القائل بأن العالم مخلـوق من أجل الإنسان إذن فأنت ستشعر أيضاً بالخجل من الاعتقاد من أن العالم أساساً مخلوق . هناك بعض القضايا المدونة مثل : « في البـداية خلق الله السماء ثم الارض » وفي عبارة أخرى « الله أوجد نورين عظيمين »و«خلق النجوم أيضاً ، ووضعها في (قلب) السماء لترسل شعاعها للارض . وتتحكم في حركة الليل والنهار » . إذا قلت أن الإنسان هو هدف الطبيعة وان ذلك مصدر فخر للانسانية ، فيجب عليك أن تعتقد أن خالق العالم هو مصدر فخر للإنسانية وهذا النور الذي يشع من أجل الإنسان هو نور اللاهوت ، ذلك النور الذي ينتشر وحده في شتى الارجاء من أجل كائن مرئي مرئي يشير أيضاً الى كائن مرئي كمسبب .

(44)

الكائن الروحي الـذي يضعه الإنسـان فوق الـطبيعة ويعتقـد أنه خالقها وموجدها ليس الا « الجوهر الروحي للإنسان نفسه » والذي يبدو له رغم ذلك كآخر يختلف عنه ، ولا يوجد وجه للمقارنة بينهما إنه جعـل علة الطبيعـة ، علة المؤثرات التي لا يستـطيع عقله الإنسـاني وإرادته أو فكره أن ينتجها ، ولانه بالتالي يجمع جوهر الطبيعة المختلفة

مع الجوهر الروحي لذاته[15]. إنها الروح المقدسة التي تجعل الحشائش تنمو ، والتي تشكل الطفل في بطن أمه ، والتي تسير الشمس في مسارها ، والتي تكوم الجبال ، والتي تتحكم في الرياح والتي تحتوي البحر بقدراتها ، كيف تقارن عقل الإنسان وهذه الروح ! انه كائن صغير ، محدود ، تافه ، وإذا رفض العقلانيون تجسيد الله والوحدة بين الطبيعة الإنسانية والطبيعة الالهية للإنسان ، فإنهم يفعلون ذلك لأن فكرة الله في عقولهم تخفي فكرة الطبيعة ، كما تتراءى لعيني الإنسان عن طريق التلسكوب الفلكي . كيف أن هذا الكائن الدنيوي اللامحدود والعظيم والذي يتمثل ويؤثر فقط في هذه الدنيا الكبيرة اللانهائية ، كيف ينزل إلى الأرض من أجل الإنسان الذي يتلاشى أمام عظمة هذا الكون ؟ يا لخيال الإنسان من حقارة وعدم قيمة ! وقصر الله على الارض وتجسيده في صورة انسان يشبه تكثيف المحيط في قطرة ماء أو تصغير حلقة Saturm الى خاتم صغير ، إنها فكرة قاصرة أن تعتقد أن الكائن الكبير محدود على الارض وعلى الإنسان أو ان الطبيعة وجدت بسببه أو ان الشمس ترسل أشعتها من أجل الإنسان وأنتم لا ترون أيها العقلانيون ذوو النظرة الضيقة أنها ليست فكرة الله وإنما فكرة الطبيعة التي تتعارض tertium comparationis من داخل نفسها لوحدة الله والانسان وتظهرها على أنها تناقض لا معنى له ؛ فأنتم لا ترون أن مركز الوحدة بين الله والانسان ليست البداية التي نسبتم لها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة قدرات مؤثرات الطبيعة ، ولكنها ذلك الكائن الذي يرى

---

(15) هذه الوحدة بين الاخلاقي والطبيعي للإنسان وليس للكائن الإنساني ، ينتج عنها ثالث ليس بإنسان وليس بالطبيعة ولكنه خليط منها وهما مثلاً للغموض والتأمل وذلك بسبب تحكمه في طبيعة هذه الوحدة .

ويسمع ، لانكم ترون وتسمعون ، والذي يعي ويملك فكـرة وإرادة لانكم تمتلكون هذه القدرات ، أو بعبارة أخرى ذلك الكـائن الذي تميزونه عن الطبيعة ، لانكم تميزون أنفسكم عنها . ماذا سيكون إذن موضع اعتراضكم إذا ظهر ذلك الكائن كإنسان حقيقي أمام أعينكم ؟ كيف يتـأتى لكم أن ترفضـوا النتائـج إذا تمسكتم بالمقـدمات ؟ كيف يمكنكم إنكار وجود الابن إذا اعترفتم بالاب ؟ وإذا كان الاله الإنسان من صنع خيال الإنسان ومن رغبته الذاتية في التأليه ، فإنكم يجب أن تعترفوا أيضاً بخالق الطبيعة ، على أنه من خلق الخيال الإنساني ورغبة الإنسان في تمييز نفسه وجعلها فوق الطبيعة . ولو أردتم كائناً مع الإنسان في صفاته anthropomorphism دون أي صفات إنسانية سواء كانت صفات عقلية أو قلبية لذا فإنكم يجب أن تتحلوا بالشجاعة , وتتخلوا عن الله تماماً ،وان تعبدوا الطبيعة المجردة لذاتها كأساس لوجودكم . وما دمتم تعترفون بوجود مختلف وتجسدون في الله صفاتكم ، وما دمتم تضعون جوهركم وطبيعتكم في الكائن الدنيوي الاول ، ونظراً لانكم لا تميزون أي كائن آخر عن طبيعة الإنسان سوى الطبيعة فإنكم من الناحية الاخرى لم تعرفوا أي كائن يتميز عن الطبيعة سوى الإنسان نفسه .

(45)

إن تصور جوهر الإنسان ككائن موضوعي يختلف عن الإنسان ، أو باختصار تشخيص جوهر الانسان ، يجسد الكائن الموضوعي الذي يختلف عن الإنسـان ، بمعنى أن تصور الـطبيعة ككـائن إنساني [16]

(16) من هذه الوجهة من النظر لا يعد خالق الطبيعة شيئاً سوى جوهر الطبيعة وهو يجرد عن =

ولذلك فإن الارادة والفكر يظهران للإنسان كقوة أولية وكعلل الطبيعة فقط لأن المؤثرات غير المقصودة للطبيعة تظهر له في ضوء فكره كمؤثرات مقصودة ، وكأهداف وكأغراض ، والطبيعة نفسها بالتالي ككائن فكري (أو على الاقل كشيء يتمتع بالعقل) . كما يرى كل شيء عن طريق الشمس ـ أو له الشمس Helios الذي يسمع ويرى كل شيء ـ لأن الإنسان يرى الاشياء في ضوء الشمس ، ولذا فإن كل هذه الاشياء تدخل إلى حيز فكر الإنسان لان الانسان يفكر فيها ؛ وهي من عمل العقل لأنها تمثل بالنسبة له موضعاً لتفكيره ، لأنه يقيس النجوم والمسافات بينها ، فإن هذه المسافات قيست بالفعل ، لأنه يطبق الرياضيات لفهم الطبيعة وقوانينها ، فإن هذه الرياضيات والقوانين طبقت على الطبيعة ، ونظراً لأنه يرى نهاية حركة معينة ، ونتيجة تطور معين ، ووظيفة عضو معين ، فإن هذا الهدف سواء كان وظيفة أو نتيجة في حد ذاته موضوع للتنبؤ ، ونظراً لأنه يمكنه تخيل عكس الاوضاع أو اتجاهات الاجرام السماوية ، وبعض الاتجاهات الاخرى التي لا تحصى ، ونظراً لانه أدرك في نفس الوقت أنه إذا تغير هذا الاتجاه ،فإنّ سلسلة من النتائج المثمرة سوف تكون مستحيلة ، ولذا فإنه يعتبر هذه السلسلة من النتائج دفعاً في هذا الاتجاه نفسه ، ولذلك فإن هذا الاتجاه اختير بترو وحكمة ضمن عدد كبير من الاتجاهات الاخرى ، التي توجد في عقل الإنسان وتم هذا الاختيار على أساس نتائجه الخيرة . ومبدأ التفكير يكون بالنسبة للإنسان مباشرة ودون تميز

= الطبيعة ويميز بوسائل التجريد ونظراً لأن الطبيعة موضوع الاحساسات وبواسطة الخيال تغيرت الطبيعة الى كائن إنساني (كائن يشبه الإنسان) وبالتالي بسطت واتخذت صوراً تجسمت وتأنست وتشخصت .

هو مبدأ وجوده ، فموضوع التفكير هو موضوع الوجود ، فكر الموضوع هو جوهره البعدي ، يفكر الإنسان في الطبيعة على أنها مختلفة عما هي عليه بالفعل ، ولا عجب في أن يفترض أن سبب وجودها كائناً آخر غيرها ، كائناً يوجد في عقله فقط ، كائناً يوجد حتى في جوهر عقله . يعكس الإنسان نظام الاشياء في الطبيعة ، فهو يجعل قمة الهرم قاعدته ، ويعتبر ان السبب في وجود شيء هو ظهور هذا الشيء في الواقع ولا ينظر وراء ذلك ـ واقع الشيء يسبق وجوده في عقل الإنسان ، ولهذا السبب فإن جوهر العقل وجوهر التفكير ليس فقط المنطقي وإنما الطبيعي هو الكائن الأول .

(46)

سر الغائية مبني على التناقض بين الضرورة الطبيعية والارادة الاعتباطية arbitrary للإنسان ، ومن الطبيعة كما هي وبينها كما يتخيلها الإنسان . لو وضعت الارض في مكان آخر ، لو وضعت مثلاً حيث يوجد عطارد الآن فإن كل شيء سيموت لانه لا يتحمل الحرارة فيا لها من حكمة ان توضع الارض في مكانها المناسب ولكن ما الحكمة في ذلك ؟ الحكمة فقط في التناقض في التضاد بين حماقة الإنسان التي توضع الارض من واعز فكره في مكان آخر غير مكانها الذي توجد فيه الأن . إذا فصلت ما لا يفصل في الطبيعة مثل الاماكن الفلكية للاجرام السماوية ، إذا فصلت هذه الاجرام عن طبيعتها المادية فمن المؤكد ان الوحدة في الطبيعة ستبدو شيئاً حتمياً ، وسيبدو لك أن المكان الذي كانت فيه هو المكان الطبيعي الذي يتفق مع طبيعتها بخلاف المكان الذي اخترته لها ، واعتقدت انه مناسب لها . ولو أن للثلج لوناً

أسود وان هذا اللون غطى منطقة القطب الشمالي فإن كل البلاد الشمالية على الأرض ستكون صحراء كئيبة لا تتناسب مع طبيعة الحياة ، وتنظيم ألوان الاجرام السماوية يؤكد لنا حكمة وجمال تنظيم الأرض . حقيقة لو لم يغير الإنسان الأبيض إلى أسود ولو لم تتخلى حماقة الإنسان عن الطبيعة وترغب في تغيرها فلن يكون هناك حكمة إلهية تتحكم في هذه الطبيعة .

(47)

« من الذي أخبر الطيور أن ترفع ذيلها عندما تريد أن تهبط أو أن تخفضه عندما تريد أن تطير إلى أعلى ؟ من لم يستطع إدراك وجود حكمة عليا عندما يشاهد الطيور تطير ، فمن المؤكد أنه أعمى ولا يستطيع إدراك أي حكمة تتمثل في الفكر ، مؤكد أنه لا يرى الطبيعة أو الإنسان . من الذي جعل طبيعة الإنسان أساس الطبيعة ، من الذي جعل قوة الفكر القوة الاساسية ، من الذي جعل طيران الطيور يعتمد على بعد الرؤية في القوانين الميكانيكية في الطيران ومن الذي جسد الافكار المعنوية في قوانين تطبقها الطيور عندما تطير كما يطبقها السائق عندما يسوق والسباح حين يسبح ، مع الفرق بأن الطير يطبق هذه القوانين من داخله؟ولكن طيران الطيور ليس مبنياً على فن ، فالفن يوجد فقط حيث يوجد عكس الفن ، وحيث يؤدي عضو organ معين وظيفته وهو ليس متصلاً بطريقة مباشرة أو بالضرورة معه . وهو يعد وظيفة خاصة الى جانب المهام الاخرى الحقيقية أو الممكنة لنفس العضو . ولكن الطائر لا يستطيع الطيران بطريقة أخرى كما انه ليست لديه الحرية في ألا يطير ، فعليه ان يطير . والحيوان دائماً يعلم كيف يفعل ما هو قادر

على فعله ، ولهذا السبب فإنه يفعل هذا بطريقة لا يسبقه فيها أحد ، وذلك أنه لا يعرف شيئاً آخر غيره ، ولأن قوته تستهلك في هذه المهمة ، ولان هذه المهمة تتفق تماماً مع طبيعته . ولذلك فإذا لم تستطع أن تفسر أعمال ووظائف الحيوانات ، وخاصة أعمال ووظائف الحيوانات الدنيا المزودة ببعض الغرائز الفنية ، دون أن تمتلك العقل ذا الفائدة الفكرية هذا فقط لأننا نعتقد أن موضوعات نشاطها تعد موضوعات لنا ، موضوعات عقلنا ووعينا . وبمجرد أن نعتبر أن أعمال الحيوانات أعمالاً فنية وأعمالاً اعتباطية arbitrary فإنه يجب علينا بالضرورة أيضاً أن نعتبر أن سبب ذلك هو تفكيرها ، لأن العمل الفني يتطلب الاختيار والقصد intention والتفكير وبالتالي كما نعرف فالحيوانات لا تعرف أن تفكر [17]. هل تعرف كيف تعطي النصيحة الى العنكبوت بالكيفية التي يحمل بها خيوطه وينسجها من شجرة إلى أخرى ، من سطح منزل الى

---

(17) وهكذا فإن الاقيسة Syllogisms بصفة عامة من الطبيعة إلى الله فإن السابقتين المقدمتين مبنيتان على الإنسان ولذا فإنه لا عجب في أن تكون نتيجتها الكائن الإنساني أو الكائن الشبيه بالإنسان . لو كان العالم اله فمن الضرورة أن يكون هناك مهندس (صانع) وإذا فرض أن الكائنات الطبيعية غير مكترثة ببعضها البعض كالبشر عموماً الذين لا يمكن إدارتهم وتوحيدهم إلا عن طريق قوة عليا تهدف إلى اي هدف اعتباطي للدولة للحرب مثلاً فمن الطبيعي إذن أن يكون هناك حاكم أو يكون هناك من يتولى امرهم وإدارتهم ، وهكذا فإن الإنسان خلق الطبيعة في بداية الأمر كخلق انساني دون أن يعي ذلك أي جعل جوهره هو جوهرها الاساسي ولكن عندما أدرك في نفس الوقت أو بعد ذلك الفرق بين أعمال الطبيعة وأعمال الفن الإنساني ظهر جوهره له كجوهر يختلف عن جوهر الطبيعة ولكن بعض الصفات منها أو مساو لها ولذلك فإن كل المناقشات التي تهدف إلى إثبات وجود الله كانت مجادلات منطقية فقط أو بالاحرى مناقشات ذات مغزى انثربولوجي لان الاشكال المنطقية أيضاً أشكال من طبيعة الإنسان .

آخر ، أو من جانب مجرى مائي الى الجانب الآخر ؟ بالتأكيد لا ؛ ولكن هل تعتقد فعلاً أن هناك حاجة إلى النصيحة في هذه الحالة أو ان العنكبوت في موقع يتطلب النصح . إذا أردت أن تحل هذه المشكلة نظرياً بالنسبة له كما بالنسبة لك فإن هناك فرقاً بين هذا الجانب أو ذلك الجانب ، أو بين العنكبوت وبين الشيء الذي يثبت عليه خيوط عشه ؟ هل هناك بالضرورة ارتباط بين عظامك وعضلاتك ؟ لأن الشيء بدونها لا يعد الا حاملاً أو معيناً لخيط الحياة والعنكبوت لا يرى ما ترى فكل الاختلافات والفواصل والمسافات كما نراها وندركها بتفكيرنا لا تتوفر لهذا الكائن ، مما يبدو لك مشكلة أو معضلة نظرية تستعصي على الحل فيما يفعله العنكبوت دون تفكير ، وبالتالي دون أية من الصعوبات التي تواجه تفكيرك كإنسان . من الذي أخبر حشرات العنب أنها ستعثر على الغذاء بوفرة في موسم سقوط العنب من على الفروع ، أو انه يتوفر في البراعم أكثر من توفره في الأوراق ؟ من الذي أرشدها الى طريق البراعم والفروع ؟ فالبراعم تعد بعيدة ، ومنطقة غير معروفة لهذه الحشرات ، التي ولدت على الاوراق . انني أعبد خالق هذه الحشرات ، والتزم الصمت حيالها . من المؤكد أنك ستلوذ بالصمت عندما ترى هذه الحشرات تعمل لانك لن تستطيع بعقلك أن تدرك أن البراعم ليست بعيدة بالنسبة لهذه الحشرات بينما هي ترى البراعم والفروع بطريقة تختلف عن الطريقة التي تراها أنت بها ، وذلك فإنه انعكاس نظرك فقط هو الذي يكشف لك الطبيعة ويجبرك على رؤية خيوط العنكبوت وعلى التفكير فيها،فالطبيعة بالنسبة لك تعد نظراً ومتعة للعين ، ولذلك فإنك تعتقد أن ما يمتع نظرك في الطبيعة ويحركها ، وبذلك فإنك تعتقد أن الضوء السماوي الذي تظهر فيه

تعتبره الكائن السماوي الذي خلق الحشرة ، أي أنك ترى أشعة العين ككبد الطبيعة ، والعصب البصري المحرك لها ، والاستدلال على الطبيعة ، من خالقها معادل لأن تنجب أطفالاً بغير بصر ، أو أن تشبع جوعك برائحة الطعام ، أو أن تحرك الصخور لتناسق الاصوات ، لو أن Greenlander تعرف على أصل سمك القرش من رائحة بول الإنسان فإن أسس هذا الاكتشاف تعادل الاسس الكونية للملحد عندما يتوصل إلى الطبيعة عن طريق تفكيره . من المؤكد أن مظاهر الطبيعة بالنسبة لنا هي السبب ولكن سبب هذه المظاهر ضئيل ضآلة أن الضوء سبب الضوء .

(48)

لماذا تنتج الطبيعة حيوانات مقدسة ؟ السبب أن نتيجة التكوين بالنسبة لها ليست غرض الوجود السابق . لماذا هذه الاطراف المتعددة ؟ لان ليس لها عدد . لماذا تضع على الجانب الايسر ما يوجد بصفة عامة على الجانب الايمن ، والعكس صحيح ؟ لانها لا تعرف ما هو اليمين وما هو اليسار . ولذا فإن الحيوانات المفترسة تثير مناقشات عامة أثيرت فيما قبل بين الملحدين وبين المؤلهين المحررين من الطبيعة ومن وصاية اللاهوت ، وذلك من أجل إثبات أن ما تنتجه الطبيعة لا يمكن التنبؤ به كما أنه اختياري ، ولكل الاسباب التي استنتجت من تفسير وضع الحيوانات المفترسة وحتى الاسباب التي توصل اليها الطبيعيون المحدثون ، والتي تنجم عن أمراض diseases of foetus تحدث بعيداً إذا إتصلت قوة الطبيعة الخلاقة أو الخصبة في نفس الوقت مع الارادة والفكر والوعي . ولكن على الرغم من أن الطبيعة لا ترى ، لذلك

فهي عمياء ؛ وعلى الرغم أنها لا تحيا كما يحيا الإنسان ، إلا أنها ليست ميتة ، وعلى الرغم أنها لا تنتج أشياء ترمي من وراثها إلى أهداف ، إلا أن ما تنتجه ليس بمحض الصدفة والإنسان يرى الطبيعة هكذا بالمقارنة بنفسه ويحكم عليها بالنقص لأنها لا تمتلك ما يمتلكه هو . الطبيعة تنتج في كل مكان يربط الاشياء بعضها مع بعض ، وهذه العلاقات تبدو للإنسان وتشغل تفكيره ويجد فيها معنى ومغزى أي « سبباً كافياً » (Sufficiant reason) . ولكن ضرورة الطبيعة ليست بالضرورة مثل ضرورة الإنسان ، بمعنى أنها لا تخضع للمنطق أو الميتافيزيقا أو الرياضيات وبصفة عامة تعد شيئاً مجرداً ، لأن الكائنات الطبيعية ليست من صنع الفكر أو المنطق أو الارقام الرياضية أو الحسابية وإنما حقيقة ملموسة تتمثل في كائنات فردية ، إنها ضرورة محسوسة وبالتالي تبدو غريبة وغير مألوفة بالنسبة لخيال الإنسان الذي يقارنها أحياناً بالاشياء المجردة كالحرية وما ينتجه خياله الحر لفهم الطبيعة فقط من خلال الطبيعة ذاتها . إنها ذلك الوجود الذي لا تعتمد فكرته على وجود آخر ؛ إنها الشيء الوحيد الذي يسمح بوجود فرق بين الشيء في ذاته وبين الشيء النسبة لادراكنا، إنها هي فقط التي لا يمكن قياسها بأي مقاييس إنسانية على الرغم من أننا نطبق عليها بصفة عامة ، أو مجبرين ان نطبق عليها بصفة عامة الافكار الإنسانية كالنظام والهدف طبقاً للطبيعة التي ندركها والمبنية على المظهر الذاتي للأشياء .

(49)

إن الاعجاب الديني بالحكمة الالهية في الطبيعة مجرد حماس طارىء ، وهو إعجاب يشير فقط إلى الوسائل ولكن هذا الاعجاب ينتهي بالتأمل في أهداف الطبيعة . يا للعجب لنسج العنكبوت ولغيره من

الحيوانات الاخرى ، ولكن ما هو الهدف وراء هذه التنظيمات الواعية ؟ لا شيء سوى التغذية ، هدف لا يعتبره الإنسان سوى مجرد وسيلة ، قال سقـراط : « الآخـرون » «Others» ولكن هؤلاء الآخـريـين هم الحيوانات والبشر قريبو الشبه بالحيوانات » يعيش الآخرون من أجل أن يأكلوا ولكن لن آكل من أجل أن اعيش ، يا لجمال الزهرة ، ويا للعجب بشكلها ولكن ما هـو الغرض من هـذا التكوين ومن هـذه الروعة ، إنها فقط لتفخيم وحماية الصفات الوراثية أو التناسل الذي يخفيه الإنسان خشية العار ، أو يمارسه بـواعز ديني ، فخـالق حشرة العنب الذي يعبده الطبيعيون والنظريون ويعجبون به ، وهذا الخالق الذي لديه حياة طبيعية ، من أجل هدفه ، ليس الاله أو الخالق بالمعنى الديني . لا خالق الإنسان فقط الذي يتميز عن الطبيعة ويسمـو عليها الخالق الذي يرى الإنسان فيه نفسه ، الخالق الذي تتمثل فيه الصفات التي تمثل كيان الإنسان بالتمييز بين الطبيعة الابدية بالطريقة التي يراها الإنسان في الدين ، ذلك الخالق هو الله الذي نعبده بمقتضى الدين .

يقول لوثر Luther : « إن الماء الذي نستخدمه في التعميد ونصبه على الطفل هو ماء الخالق ، وماء الله والمنقذ الماء الطبيعي ، نشترك فيه نحن والحيوانات والنباتات ولكنها [الحيوانات والنباتات] لا تشارك في ماء التعميد ، إذ يربطني الماء الطبيعي بالكائنات الاخرى في حين أن ماء التعميد يميزني عنهم ، ولكن هدف الدين ليس الماء الطبيعي وإنما ماء التعميد وبالتالي فأنا لا يهمني خالق المياه الطبيعية وإنما خالق ميـاه التعميد هدف الدين . خالق المياه الطبيعيـة ذاته بـالضرورة طبيعي وليس دينياً ، أي أنه ليس كائناً خارقاً . والماء شيء محسوس ، شيء مرئي وبالتالي لا تقودنا صفاته ومؤثراته إلى قضية خارقة للطبيعة ولكن

ماء التعميد ليس شيئاً يجذب النظر العادي ، أو العين العادية ، إنه كائن روحاني غير مرئي ، وفوق المستوى الحسي ، أي أنه كائن يعمل من أجل الايمان في الفكر والخيال، كائن يجد فقط في الفكر والخيال لانه كائن روحي . تعمل المياه الطبيعية على تنظيف جسمي في حين تنظف مياه التعميد الصفات الخلقية السيئة كما تبرئني من الامراض ؛ تروي المياه الطبيعية عطشي في الحياة المؤقتة في حين تشبع مياه التعميد رغبتي في حياة أبدية . تأثير المياه الطبيعية تأثير محدود وواضح في حين ان تأثير مياه التعميد تأثير غير محدود وقوي يفوق بكثير طبيعة المياه العادية ولذا فإنه يمثل الطبيعة السماوية ويظهرها وهي طبيعة لا ترتبط بالطبيعة العادية وإنما هي الجوهر المطلق لقدرة الإنسان على التفكير والتخيل التي لا تحدها حدود الخبرة أو السبب . ولكن أليس خالق مياه التعميد هو خالق المياه الطبيعية ؟ ما علاقة الاول بالاخير؟ وخلاصة القول أن المياه الطبيعية ومياه التعميد مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً وبالتالي فإن خالق الطبيعة هو مجرد شر لخالق الانسان كيف يتأتى لمن ليس في حوزته مياه الطبيعة أن يحصل على مؤثرات خالقه للطبيعة ؟ كيف يتأتى لمن لا يتحكم في الحياة المؤقتة أن يهب حياة أزلية ؟ كيف يتأتى لمن لا تطيعه عناصر الحياة أن يحيا جسده بعد أن تحول إلى تراب ؟ من هو سيد الطبيعة إن لم يكن ذلك الكائن الذي بحوزته القوة أن يخلقها من العدم بمحض إرادته ؟ إنه ذلك الذي يعلن أن وحدة الجوهر الخلاق لماء التعميد والمياه الطبيعية على أنها تناقض بدون معنى والذي قد يعلن أيضاً أن وحدة جوهر الخارق للطبيعة لخالق الطبيعة على أنها تناقض أيضاً ، لان مؤثرات مياه التعميد والمياه الطبيعية علاقة مساوية للعلاقة الموجودة بين الخالق الخارق للطبيعة

والطبيعة الطبيعية . أصل الخالق هو نفس الاصل الذي تتدفق منه مياه التعميد العجيبة والخارقة للطبيعة إننا نرى جوهر الخالق في ماء التعميد باعتبار أنه مثل محسوس كيف إذن تنكر معجزة التعميد وبعض المعجزات الاخرى إذا كنت تعترف بأصل الخالق أي بأصل المعجزة ؟ أي بمعنى آخر كيف تنكر المعجزة الصغيرة إذا كنت تعترف بمعجزة الخالق الكبرى ؟ ولكن هذا يوجد في عالم اللاهوت كوجوده في العالم السياسي حيث يسجن صغار اللصوص وينجو كبارهم .

(50)

هذه العناية الالهية التي تتجلى في الامتثال لهدف وقوانين الطبيعة ليست هي العناية الالهية الموجودة في الدين المبنية على الحرية في حين أن العناية الالهية الاولى التي تتجلى في قوانين الطبيعة مبنية على الضرورة ، إن العناية الإلهية الدينية عناية غير محدودة لا تحدها شروط في حين أن العناية الالهية المتمثلة في قوانين الطبيعة محدودة وتعتمد على الآلاف من الشروط . إن العناية الالهية المتمثلة في الطبيعة عناية خاصة وفردية في حين أن العناية الاخرى تمتد فقط للجميع ولكل الاجناس في حين تترك الإنسان للصدفة ويقول أحد الطبيعيين الملحدين أن هناك عديداً من الناس الذين يعتقدون ان الله أكثر من أصل حسابي (رياضي) للطبيعة ، هؤلاء الناس اعتقدوا ان بقاء العالم وبصفة خاصة بقاء الانسان بقاء مباشر وخاص وكأن الله يحكم أو يتحكم في أعمال كل الكائنات ويقودها طبقاً لاهوائه ولكن بعد أن ناقشنا قوانين الطبيعة فلا يمكننا أن نعترف بهذا الحكم الخاص من جانب الله على أعمال الإنسان والكائنات الاخرى . نتعلم هذا من الاهتمام القليل الذي توليه الطبيعة لكل فرد

مفرد ، آلاف الافراد يذهبون ، يضحى بهم دون تردد أو ندم وسط دوامات الطبيعة . وحتى فيما يتعلق بالإنسان فإنه قد يلاقي نفس المصير، يبلغ حوالي نصف الجنس البشري الثانية من عمرهم ولكنهم يموتون دون معرفة سبب مجيئهم للحياة، نعلم هذا مما يحدث لاصحاب الحظ العاثر الطيب منهم وغير الطيب وهي ظاهرة لا يمكن أن تتفق مع صفة الخالق للمحافظة على الحياة وخلق روح التعاون فيها[18] .

ولكن العناية الالهية ليست عناية خاصة ، لا تتفق مع هدف أو جوهر أو فكرة العناية ؛ لان العناية يجب أن تحطم الصدفة ، لكن هذا ليس إمكاناً بواسطة مجرد العناية العامة فقط والتي ليست أفضل من عدم العناية على الاطلاق . وبذلك فإنها « ناموس النظام الالهي في الطبيعة » أي أنها نتيجة للعلل الطبيعية التي توجد بنسبة محدودة طبقاً لعدد السنين فعلى سبيل المثال ، يموت طفل من كل ثلاثة أو أربعة أطفال في السنة الاولى ، وفي السنة الخامسة يموت طفل من كل خمسة وعشرين طفلاً، وفي السنة السابعة يموت طفل من كل خمسين طفلاً، وفي السنة العاشرة يموت طفل من كل مائة طفل ، ولكن كل هذا بمحض الصدفة أن يموت هذا الطفل بالذات في حين أن ثلاثة أو أربعة

(18) والطبيعة على الرغم من ذلك لا تعبأ كثيرا بالاجناس أو الانواع . والطبيعة تحفظ الانواع لانها ليست شيئاً سوى مجمل الافراد الذين يتكاثرون ويزدادون بانفسهم فبينما يتعرض بعض الافراد الى التأثيرات المدمرة الطارئة ، لا يتعرض البعض لهذه المؤثرات ، وهكذا يحافظون على استمرارهم ولكن يتعرض الجنس بأكمله للهلاك مما يعرض فرداً فرداً للموت وهكذا اختفى Dronte والغزال الايرلندي العملاق وهكذا تختفي بعض أجناس الحيوانات الآن نتيجة امتداد الحضارة الى الاماكن التي كانت تتواجد فيها هذه الحيوانات أو ما زالت تتواجد بأعداد كبيرة ، واختفى كلب البحر من بعض الجزر التي نزح إليها الإنسان والذي سيختفي تماماً من الارض .

أو أي عدد آخر من الاطفال يبقون على قيد الحياة ، وبذلك فإن الزواج أمر منظم من قبل الخالق وقانون العناية الطبيعية لكي نحافظ على الجنس البشري ، وتنميته وبالتالي فإن الزواج وجب عليه . ولكن سواء علي أن أتزوج هذه ، وسواء كانت هذه الإنسانة قادرة على الانجاب أم لا ، فأنا لا أعلم بهذا ، ولكن لمجرد أن العناية التي نعيش عليها ، والاغريق لم يخلقوا الكائن المقدس (الالهي) الكائن الاصلي والكائن الممكن ولكنهم خلقوا الكائن الاصلي كمقياس للكائن الممكن وحتى عندما لقوا المتهم وأصبغوا عليها الصبغة الروحية عن طريق الفلسفة فإن رغباتهم لم تكن مبنية على أسس الحقيقة والطبيعة الإنسانية كانت الآلهة هي الاماني المحققة ولكن كانت أسمى الاماني التي يرنو اليها فيلسوف أو مفكر هي أن يفكر دون أن يقاطعه أحد .

وآلهة الفلاسفة الاغريق ، والفيلسوف الاغريقي ، على الاقل الفلاسفة الممتازين كالاله جوبيتر ، وإله أرسطو كانوا لذلك مفكرين لا يزعجهم شيء وكانت سعادتهم وقداستهم تتسم بنشاط غير منقطع من التفكير ولكن هذا النشاط وهذه السعادة كانت نفسها سعادة حقيقية داخل هذا العالم وداخل الطبيعة البشرية على الرغم من أنها كانت في هذا المكان محدودة بالتوافقات وكانت هذه السعادة أيضاً واضحة خاصة ولذلك بدت للمسيحيين على أنها سعادة محدودة تتناقض مع جوهر السعادة الحقيقية فذلك لأن المسيحيين ليس لديهم اله محدود وإنما إله مطلق خارق يفوق كل الحاجة الطبيعية بمعنى أنه كان له آمال غير محدودة وخارقة وتتعدى مجال هذا العالم ومجال الطبيعة ومجال الجوهر الإنساني ، أو بمعنى آخر كانت لديه أيضاً آمال اغاية في الغرابة فالمسيحيون يريدون أن يكونوا عظماء بلا حدود وسعداء بلا حدود

يفوقون في عظمتهم وسعادتهم سعادة إلهة الاولمب. وكانوا يرغبون في جنة تتحطم فيها كل القيود والحاجات وتتحقق فيها كل آمالهم[19] . جنة ليس بها مطالب أو متاعب أو جروح أو كفاح أو عواطف أو تغير الليل والنهار أو ضوء وظل أو سعادة وألم ، كما كان الحال في جنة الاغريق وباختصار لم يعد موضوع اعتقادي إلهة محدودة واضحة أو آلهة لها اسم محدد مثل جوبيتر Jove أو بلوتور Pluto وVolcan ، لكن آلهة بدون إسم لأن أصل رغباتهم لم يكن محدداً أو واضحاً فقد كانوا يرمون إلى السعادة الارضية والسعادة الدنيوية والمتعة المحددة كالحب أو الموسيقى أو الحرية الخلقية أو التفكير وإنما متعة تتضمن بداخلها كل المتع ومع ذلك ولهذا السبب فهي متعة خارقة للطبيعة تفوق كل الافكار ، متعة لا نهائية ، لا يمكن بأي حال من الاحوال أن توصف . السعادة والقداسة شيء واحد . السعادة كموضوع للعقيدة أو الخيال وبصفة عامة كموضوع نظري هي الالوهية ، الالوهية كموضوع للقلب والارادة[20] ، وموضوع للاماني وكذلك موضوع عملي بصفة

---

(19) يتساءل لوثر أين الله ؟ في السماء لا بد أن هناك أشياء خيرة قد تمناها وهكذا قيل في القرآن أن كل رغبات الإنسان ستلبى في الجنة ولكن هذه الرغبات تختلف عن الرغبات الدنيوية .

(20) يرى الاخلاقيون أن الارادة على الرغم من ذلك لا تمثل الوجه المحدد للدين لانني لا احتاج إلى آلهة فيما أود أن افعله بإرادتي وجعل الاخلاقيات سبباً جوهرياً للدين يحافظ على اسم الدين ولكنه يفقد الدين جوهره فالإنسان قد يكون على خلق دون اله لكنه سعيداً بالمعنى المسيحي الخارق للطبيعة والإنسان لا يمكن أن يكون بدون اله ونظراً لأن السعادة بهذا المعنى تكمن وراء حدود وقوى الطبيعة والجنس والإنسان البشري فإنها نتيجة لذلك تتطلب بصفة مبدئية كائناً خارقاً للطبيعة لتحقيقها ، كائناً موجوداً وقادراً على تحقيق ما يستعصي على الطبيعة والإنسان. وإذا كان كانط قد جعل الاخلاق أساس الدين فإن علاقته بالمسيحية تشبه علاقة أرسطو بالديانة الاغريقية عندما جعل أرسطو

عـامة . والالـوهية فكـرة تتجسم حقيقتها وواقعهـا في السعادة فقط وامتداد السعادة هو امتداد الالوهية . لا يفترقان عن بعضهما البعض وإنما يسيران جانباً الى جانب ومن لم يعد لديه أماني خارقة للطبيعة لم يعد لديه أيضاً كائنات خارقة للطبيعة ، الطبيعية والتي هي في الواقع لا شيء سوى الطبيعة نفسها لا تقدم لي يد العون عندما أقدم على تطبيق القانون لحالة فردية أو خاصة وإنمـا تتركني لنفسي في فـترات الاختيار الحرجة وتحت ضغط الحاجة . وبذلك فإنني أستعين بحكمة عليا أو بالعناية الالهية الخارقة للطبيعة تضيء لي الطريق عندما ينطفىء نور الطبيعة ويبدأ حكمها في المكان الذي ينتهي فيه حكم الطبيعة . تعلم الالهة وتخبرني أنها قرّرت ما تتركه الطبيعة في الظلام للجهل وما تعطيه للصدفة . والمجال الذي يعرف فلسفياً ، وبصفة عامة على أنه مجال الصدفة الايجابي الفردي الذي لا يتأتى شخصياً ان يتنبأ به هو مجـال حدود الله ، حدود العنـاية الالهيـة الدينيـة والصلاة والعبـادات هي الوسائل الدينية التي يستعين بها الإنسان على الغموض الذي يحيط به أو

= النظر جوهر الالهة . والالهة التي ليست سوى كائن تأملي ولا شيء سوى التفكير هي رغم كل ذلك الهه ، على الرغم من انها ليست سوى مجرد كائن أخلاقي أو قانون مجسد للاخلاق . حقيقة كان جوبيتر بالفعل فيلسوفاً أيضاً عندما نظر وابتسم من قمة أولمب على صراعات الالهة ولكنه ما زال أعظم منهم عظمة متناهية ولكن من المؤكد أيضاً أن الاله المسيحي كائن أخلاقي ولكنه مثل جوبيتر عظيم عظمة مطلقة . لأن الاخلاق هي فقط أساس السعادة . والفكرة التي تشكل أساس السعادة المسيحية وخاصة إذا قارنتها بالوثنية الفلسفية ، هذه الفكرة ليست سوى ان السعادة الحقيقية توجد فقط في إرضاء طبيعة الإنسان ككل ولهذا السبب فإن المسيحية تعترف أيضًا بالجسد كعنصر من عناصر السعادة . ولكن الاستطراد في هذه الفكرة لا يتعلق بهذا الموضوع وإنما يتعلق بجوهر المسيحية .

على الاقل تمده بالامل[21] .

(51)

يقـول ابيقور Epicurus : تـوجد الالهـة في ثنايـا الكـون ، إنهم يوجدون فقط في الفضاء الخارجي وفي الفجوة Obyss التي تكون بين عـالم الخيال وعـالم الواقـع ، وبين القـانون وتـطبيقه ، وبـين الفعـل والنتيجة ، وبين الحاضر والمستقبل ، والالهة كائنات خياليـة وبالتـالي فـإنهم يدينـون بوجـودهم ليس للحاضر فقط وإنمـا أيضاً للمستقبل والماضي . وتلك الالهة التي تدين بوجودها للماضي هي الالهة التي لم يعد لها وجود او الالهة الميتة . وهذه الكائنات التي تعيش فقط في العقل والتي تمثل عبادتها بين بعض الامم كل الدين،ويرتبط بها جزء هام وأساسي من الدين ولكن العقل الذي يتأثر بالمستقبل أقوى بكثير من العقل الذي يتأثر بالماضي ، إذ أن العقل الذي يتأثر بالماضي يترك رؤية الذكريات الهادئة وراثه في حين أن ذلك الذي يتأثر بالمستقبـل يقف أمامنا يرتعد خوفاً من النار أو من سعادة الجنة . إن الالهة التي تنهض من القبور هي ذاتها مجرد أخيلة أو ظلال للالهة والالهة الحقيقية التي تحيا الآن والتي تتحكم في المطر وأشعة الشمس والصنوبر والحيـاة والموت

---

(21) تقارن في هذا الصدد تعبيرات سقراط في كتابات اكسنوفان فيما يتعلق بالـ aracles .
يصلي المسيحيون لالهتهم من أجل المطر كما يصلي الاغريق لجوبيتر ويعتقدون ان صلواتهم تجاب ويقول لوثر في مأدبته table-discouses كان هناك قحط شديد في لأن المطر لم ينزل منذ فترة طويلة وبدأت الحبوب تجف في الحقل ، وعندئذ صلى الدكتور م .ل . صلاة متصلة وتضرع إلى الله ونادى بصوت مرتفع ينبع من أحشائه وقال : « يا إلهي أتوسل إليك أن تلبي دعواتنا كما وعدتنا ، اعلم أننا نصلي لك بصوت عـال وتنهد تنهدات تنم عن خطر يحيق بنا فلما لا تسمع لنا »وفي اليوم التالي نزل المطر وانبتت الارض .

والجنة والنار ، هذه الالهة تدين بوجودها أيضاً إلى قوى الخوف والرجاء التي تتحكم في الحياة والموت والتي تضيء الهوة المظلمة بكائنات من صنع الخيال . إن الحاضر أمر عادي للغاية ، ومحدد ولا يتغير ، ففي الحاضر يتفق الخيال مع الواقع ، ومن ثم فإنه لا يوجد فيه مكان للالهة إذ أن الحاضر بلا آلهة ، أما المستقبل فإنه امبراطورية الشعر يموج باحتمالات لا حدود لها ، فقد يتشكل على حسب اهوائي أو مخاوفي ، كما أنه ليس خاضعاً بعد للثبات إذ أنه يتأرجح بين الوجود والعدم ، كما أنه ما زال ينتمي إلى عالم غير مرئي ، عالم لم يدخل في مجال الجاذبية الارضية ، وقوانين الطبيعة ، وإنما هو عالم موجود في إطار قوة حسية (sensory nerves) وهذا العالم هو عالم الآلهة. إن عالمي هو الحاضر بينما المستقبل يخص الالهة . أنا الآن ، هذه اللحظة الحاضرة على الرغم من أنها حالاً ستصبح ماضياً، إلا أنها لا يمكن انتزاعها مني عن طريق الالهة ؛ لأن الاشياء التي حدثت لا يمكن أن تتغير حتى ولو بقوة الهية ، كما قال القدماء من قبل . ولكن هل سأكون موجوداً في اللحظة القادمة ؟ هل اللحظة القادمة من حياتي تعتمد على إرادتي ؟ أو هل هناك علاقة بينها [حياتي] وبين اللحظة القائمة ؟ لا ، لأن عديداً من الاحداث ، كالارض تحت قدمي والسقف الذي يعلو رأسي ، والنور والطلقات والاحجار وحتى ثمرة العنب التي قد تخطىء طريقها في مجرى حلقي يمكنها أن تنتزع مني اللحظة القادمة . ولكن الآلهة الخيرة تمنع هذا حيث توجد بأجسامها اللامتناهية في كل ثغرة في جسد الإنسان الذي يرقد عرضة لكل وسائل التدمير ؛ إنها تربط اللحظة القادمة باللحظة الماضية ، والمستقبل بالحاضر ؛ إنها تمتلك ما يمتلك الإنسان بصفة دائمة أو على فترات .

(52)

الخيرية هي السمة الجوهرية لـلالهة ، ولكن كيف يتمتعـون بهذه السمة إن لم يكونوا أقوياء ومتحررين من نواميس العناية الطبيعية أي متحررين من قيود الحاجة الطبيعية ؛ لم يظهروا في اللحظات الفردية التي تفرق بين الحياة والموت كسادة للطبيعة ، بل كأصـدقاء نـافعين للإنسان ، وإذا لم يفعلوا تبعاً لذلك أي معجزة ؟ الآلهة أو بالاحرى الطبيعة قد وهبت الانسان قوى جسدية وعقلية من أجل أن تمكنه من العيش . ولكن هل هذه الوسائل الطبيعية التي تمكنه من البقاء كافية دائماً ؟ ألا أتعرض صراحة بصفة دائمة لمواقف أفقد فيها الامل ما لم تتدخل القوى الخارقة ضد مسار الطبيعة ؟ النظام الطبيعي نظام خير ، لكن هل هو خير دائماً ؟ هـل هذا المـطر المنهمر بصفـة مستمرة ، أو القحط يدخل في نظام الطبيعة ؛ ولكن هل يجب أن أموت تحت وطأة هذا المطر أو القحط أنا وأسرتي وشعبي ؟ ما لم تمد لي الآلهة يد العون وتوقف هذه الظواهر الطبيعية[22] . لذا فإن المعجزات جزء لا يتجزأ من الحكم الالهي والعناية الالهية ، كلا ، إنها فقط أدلة وظواهر وآيات الآلهة ، وقوى وكائنات متميزة عن الطبيعة وإنكار المعجزات هو إنكار للآلهة ذاتها . بما تتميز الآلهة عن الإنسان؟ تتميز الالهة عن الإنسان فقط بـأنها لا محدودة . يعيش البشر وتتسم حيـاتهم بالالـوهية ولكن للأسف لأن الحياة لا تستمر إلى الأبد لانهم يموتون ولكن الالهة خالدة. والناس أيضاً سعداء ، إلا أن هذه السعادة لا تدوم مثل سعادة الآلهة ، والناس قد يكونوا خيريين أيضاً ولكن ليس بصفة دائمة وهذا كما يقول

(22) حقيقة كانت إزالة الحدود أثراً في زيادة وتغير النتائج ولكنها لم تدمر صفاتها الجوهرية .

سقراط يمثل الفرق بين الالهة والإنسان وهو فرق يتلخص في أنّ الآلهة خيرة دائماً ويقول أرسطو أنّ الإنسان يتمتع بالسعادة الالهية في الفكر ولكن نشاطه العقلي توقفه بعض الوظائف والاعمال الاخرى ، وهكذا فإن الإنسان يمتلك هذه الصفات بحدود معينة في حين أن الآلهة تمتلك هذه الصفات بصفة مطلقة . وكما أن المستقبل ليس سوى استمرار لهذه الحياة دون أن يوقفها توقف بالموت فإن الكائن الالهي ليس سوى استمرار للكائن الإنساني دون أن يتوقف بوسائل الطبيعة عامة وهو الآلهة الطبيعية الإنسانية دون توقف ودون حدود . ولكن كيف تتميز المعجزات عن مؤثرات الطبيعة ؟ تماماً كما تتميز الآلهة عن الإنسان . فالمعجزة ذات تأثير أو صفة من صفات الطبيعة وتكون في بعض الاحوال غير خيرة ، أو خيرة أو على الأقل لا تضر أحداً فقد تنقذني من الغرق في المياه لو أنني وقعت في الماء ، وقد تحميني من وهج النار ، أو تحميني من حجر يقع فوق رأسي ، وباختصار فهي مصدر للخير وقد تكون أيضاً مصدراً للشر وهي تتأرجح بين الخير والشر بصفة مستمرة . تدين الآلهة والمعجزات بوجودها لما يشذ عن القاعدة ، فالالوهية تدمير للنقائص والضعف الإنساني وهي السبب المباشر في الشواذ ، والمعجزة هي تدمير للنقائص وحدود الطبيعة . الكائنات الطبيعية معرفة وبالتالي فهي كائنات محددة وهذا التحديد في بعض الحالات هو السبب في تعرض الإنسان للمخاطر أو للاذى ولكن بالمعنى الديني ، ليس هذا بالضرورة وإنما هو أمر اعتباطي خلقه الله وبالتالي قد يدمره ، بمعنى أن رفاهية الإنسان تتطلب هذا وإنكار المعجزات بدعوى أنها لا تتناسب مع مكانة الآلهة وحكمتهم التي تحدد بها كل شيء من البداية بأفضل الطرق ، هذا الانكار هو تضحية بالإنسان للطبيعة وتضحية بالدين للفكر . ودعوة الناس للالحاد باسم الله . الإله الذي يلبي فقط ، الصلوات ورغبات الإنسان يمكن أن تلبى بدونه ،

الرغبات التي تكون في مجال الاسباب الطبيعية ، والالهة التي تبعاً لذلك تمد لنا يد العون ما دامت الطبيعة والفن يقدمان لنا المساعدة التي تتوقف عن مساعدتنا بمجرد انتهاء materia medica هذه الالهة ليست شيئاً سوى ضرورة شخصية للطبيعة مختفية وراء اسم الله .

(53)

الاعتقاد في الله هو إما اعتقاد في الطبيعة (الكائن الموضوعي) ككائن إنساني (ذاتي) أو الاعتقاد في الجوهر الإنساني كجوهر للطبيعة . والاعتقاد الاول دين الطبيعة ، والتعدد Polytheism [23] والآخر دين إنساني وروحاني هو التوحيد Monotheism . التعدد يضحي بنفسه للطبيعة فهو يعطي للجوارح الإنسانية كالعين والقلب قوة تحكم على الطبيعة ؛ ويجعل الإنسان معتمداً على الطبيعة ، في حين يجعل التوحيدي الطبيعة معتمدة على الوجود الإنساني؛ يقول الأول إذا لم توجد الطبيعة فإنا لا أوجد ، في حين يقول الثاني عكس ذلك : أي إذا لم أوجد فإن العالم والطبيعة لن يوجدا. والمبدأ الأول للدين هو أن لا أساوي شيئاً بالمقارنة بالطبيعة كل شيء يقارن بي يكون إلهاً .وكل شيء يلهمني بالتبعية ، وكل شيء قد يجلب لي الحظ أو المصائب والرفاهية والدمار بمحض الصدفة على الرغم من ذلك لكن الإنسان من الاصل لا يميز بين الدافع السببي والدافع الطارىء ؛ ولذلك فإن كل شيء يعد دافعاً للدين . والدين من وجهة النظر اللانقدية هو شعور بعدم الاستقلال - هو الفتشية التي تعد أساس التعدد . ولكن خلاصة الدين هو أن أي شيء لا يساوي شيئاً بالمقارنة بي ، إن كل عظمة النجوم وعظمة آلهة

(23) تعريف الشرك polytheism يتضمن الخير بصفة نسبية دون مزيد من التفسير كما هو الحال في الدين الطبيعي الذي يتضمن الخير بطريقة نسبية .

أصحاب مذهب التعدد تختفي أمام عظمة الروح الإنسانية ، كما تختفي كل قوى العالم أمام قوة القلب الإنساني ، وتختفي ضرورة الطبيعة الميتة أمام ضرورة الكائن الحي الواعي ، لأن كل شيء يمثل وسيلة بالنسبة لي ، لكن الطبيعة لا توجد من أجلي ، إذا كانت قد وجدت بنفسها وإذا لم تكن من الله وإذا كانت الطبيعة موجودة بذاتها ولهذا تملك سبب وجودها في ذاتها إنها ستكون لهذا السبب جوهراً مستقلاً ، وجوداً وجوهراً أصلياً بدون أي علاقة بذاتي ومستقلاً عني ، وأهمية الطبيعة التي تظهرها على أنها لا تمثل شيئاً لذاتها وإنما وسيلة للإنسان ، هذه الأهمية يمكن إرجاعها تبعاً لذلك الى الخلق ، ولكن هذه الأهمية تتضح في اللحظات التي يصطدم فيها الإنسان بالطبيعة كما هو الحال في أوقات خطر الموت والحزن ، الطبيعة في هذه الاحوال يضحى بها من أجل رفاهية الإنسان . ولذلك فإن المعجزات معتمدة على الخلق ، والمعجزة هي خلاصة وحقيقة الخلق . علاقة الخلق بالمعجزة هي نفس علاقة الفرد بأبناء جنسه فالمعجزة هي فعل من أفعال الخلق في حالة فردية خاصة ، أو الخلق نظرية والمعجزة هي التطبيق العملي لهذه النظرية .
الله هو الكائن الاول في النظرية لكن الإنسان هو الكائن الاول في الممارسة ، هو الهدف في هذا العالم ، والطبيعة لا تمثّل شيئاً بالنسبة لله ، وما هي إلا لعبة في يده ولكنها لا يمثل ان تفعل شيئاً ضد الإنسان ، يتحرر الإنسان في الخلق من قيود الجوهر ، من الروح ، كما يتحرر من قيود الوجود ، من الجسد في المعجزة ؛ ففي الخلق يضع تفكيره المرئي ، الجوهر المنعكس ، وفي المعجزة يكون جوهره الفردي والعملي المحسوس جوهر العالم عندئذٍ فإنه يعطي الصيغة الشرعية للمعجزة ، هنا يؤدي Performs هذه المعجزة فقط . المعجزة تحقيق هدف الدين

بطريقة محسوسة ـ ومعروفة ـ هي سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وتصبح قداسة الإنسان حقيقة واقعة ، يصنع الله المعجزات ، لكن بناء على رغبات الإنسان ، أو صلوات الإنسان ولكن ليس طبقاً لصلاة معينة أو دعوة معينة ولكن بالمعنى الإنساني طبقاً لصلاة تتفق مع رغبات الإنسان المختفية التي تنبع من سويداء قلبه . ضحكت سارة Sarah وهي عجوز عندما وعدها الله بولد ، ومع ذلك كانت رغبتها في أن يكون لها ولد الرغبة التي تشغل بالها وتملأ قلبها . ولذلك فإن المحرك السري للمعجزات هو الإنسان ، ولكن مع تقدم الزمن انكشف هذا السر ـ حيث يصبح الإنسان هو المحرك الظاهر والملموس للمعجزات ، في البداية الإنسان ينتظر المعجزات في النهاية أصبح يحقق المعجزات بذاته ، وفي البداية كان هو (موضوع) الله ، في النهاية أصبح هو الله بنفسه ، وفي البداية كان الله وحده في القلب ، وفي العقل ، وفي الفكر ، وفي النهاية أصبح الله في الجسد . ولكن الفكر يدعو إلى الخجل والرغبات الحسية لا تدعو إلى الخجل والفكر يتسم بالصمت والتزمت في حين مطلب الرغبات الحسية يُعبِّر عنه ملأ بصراحة ، ولذلك فإن الرغبات الحسية تتعرض للسخرية إذا تعارضت مع العقل لأن التناقض يصبح واضحاً ولا يمكن إنكاره ، وهذا هو السبب الذي جعل العقلانيين المحدثين يخجلون من الايمان بأن الله في الجسد ، أي يخجلون من الإيمان بالمعجزات الملموسة والمحسوسة بينما لا يخجلون من الاعتقاد في الآلهة غير المحسوسة أي في المعجزة المختفية غير المرئية ومع ذلك فسيأتي الوقت الذي تتحقق فيه نبوءة Lichtenberg والذي يتحقق فيه الاعتقاد في الله بصفة عامة وبالتالي سيأتي أيضاً الوقت الذي يُعتبر فيه الاعتقاد في الارادة الإلهية العقلانية نوعاً من الخرافات كما كان الحال

في الاعتقاد بوجود الاله المعجز المسيحي في الجسد . وسيأتي الوقت الذي يضيء فيه نـور الطبيعـة النقي والعقل لـلإنسانيـة ويبعث فيها الدفء بدلاً من نور الكنيسة .

(54)

يجب أن يتسم بالامانة من يؤمن بالله وليس لديه من دلائل على هذا سوى الدلائل التي يوفـرها لـه العلم الطبيعي والفلسفـة والملاحـظة الطبيعية ، بصفة عامة والذي يفسر تبعاً لذلـك فكرة الله من المـواد الطبيعية أو يعتبر الاله لا شيء سوى سبب قوانين الفلك ، والفلسفة الـطبيعية والجغـرافيـا وعلم التعـدين ، والفيـزيـاء ، وعلـم الحيـوان والانثربولوجيا . هنا الإنسان يجب أن يتسم بالامانة بحيث يمتنع عن استخدام اسم الله لأن السبب الطبيعي يكون دائماً الجوهر الـطبيعي وليس ما يمثل فكرة الله[24] . فالكنيسة التي تحولت إلى متحف يبهـر الرائي يمكن أن نسميها بيت الله ، وهي ضئيلة بنفس القدر الذي به الأله الحقيقي ، الذي تتجلـى طبيعتـه وجهـوده فـي أعمـال فلكيـة ، جغرافية ، وانثربولوجية ؛ الله كلمة دينية ، موضوع وكائن ديني وليس كائناً فلكيـاً محسوسـاً بصفة عـامة . يقـول لوثـر **Luther** في مأدبتـه

---

(24) الاستخدام الاعتباطي للكلمات ليس محدوداً ولكن على الرغم من ذلك فإن الكلمات لا تستخدم اعتباطياً ولا تفهم بطريقة متناقضة مثلما تفهم كلمة الله والدين . من اين إذن يأتي هذا الاستخدام الاعتباطي للكلمات أو اختلاط الامر ؟ السبب يرجع إلى أن الناس يتمسكون بالاسماء القديمة بدافع التبجيل لا الخوف من أن يناقضوا الآراء القديمـة السائدة (لأن الاسم فقط والمظهـر ، يتحكمان في العالم وحتى في عالم المؤمنين بالله رغم إنهما يربط معهما فكرتين مختلفتان تمام الاختلاف ، اكتسبتا فقط على مدى الأيام) . وهكذا كان لاسماء الالهة الاغريق معان متناقضة للغاية بمرور الوقت كما كان الحال مع آلهة المسيحيين . فالالحاد سمى نفسه بالتأليه كالدين القائم سمى مناهضة المسيحية نفسها بالمسيحية الحقيقية الموجودة الآن .

table-discourses : « ان الله والعبـادات Deus et Cultus يشبهـان بعضهما ولا يوجد واحد دون الآخـر لأن الله لا يمكن أن يكون إلهـاً لـلإنسان أو إلـه أمة. وفي نفس الـوقت Praedicamento relationis فالاثنان تجمعهما علاقة متبادلة ، وسوف يكون لله بعض الناس الذين يعبدونه لأن عبـادة الله ووجوده مـرتبطان بعضهـما بالبعض كـالزوج وزوجته ـ فالزواج لا يقوم دون أحدهما » ـ ولذلك فإن الله يتنبأ بوجود الناس الذين سيعبدونه ؛ والله هو الكائن الذي لا تعتمد فكـرته أو تصوره على الـطبيعة وإنما على الإنسـان ، وعلى الإنسـان المتدين ؛ فالشيء الذي يعبد لا يوجد بدون ما يعبده ، أي ان الله شيء يتفق وجوده مع وجود الدين ويتفق جوهره مع جوهر الدين ، ولـذلك لا يوجد منفصلاً عنه أو مختلفاً عنه أو مستقلاً عنه ولكنه هو ذلك الكائن الـذي يحتوي بصفـة موضـوعية عـلى ما يحتـوي عليه الـدين بصفـة ذاتية[25] . الصوت هو « الجوهر الموضوعي » واله الأذان ، والضوء هو الجوهر الموضوعي واله العين ؛ والصوت يوجد فقط من أجل الاذن كما يـوجد الضـوء من أجل العـين وهناك في الأذان مـا هو مـوجـود في الصوت : كالاجسام الموحية التي تتموج وترتعد ، والغشـاء الممتد ، والمواد الجيلاتنية ؛ لكنه لا يوجد في العـين أعضاء الضـوء ، وجعل الالهة موضوعاً للفلسفة الطبيعية والفلك ، وعلم الحيوان ، هـو تبعاً لذلك بمثابة جعل الصوت موضوع العين، ونظراً لأن النغم يوجد فقط في الاذن ومن أجلها فإن الله يوجد في الدين فقط ومن أجله وفي الايمان

(25) لذلك فإن الكائن الذي يمثل مبدأ فلسفياً وبالتالي موضوعاً للفلسفة وليس موضوعاً للدين أو العبادة أو الصلاة أو للقلب ذلك الكائن الذي لا يلبي أي رغبات أو يسمع اي دعاء ، ليس إلا الاله الاسمى وليس الهاً حقيقياً .

فقط ومن أجله . ونظرا لأن الصوت أو النغمة كموضوع للسمع يعبران فقط عن طبيعة الأذان فإن الله كموضوع مجرد للدين والايمان يعبر عن طبيعة الدين والايمان . ولكن ما الذي يجعل الشيء شيئاً دينياً ؟ وكما قد رأينا خيال الإنسان وعقله سواء عبر Jehaievah أو ابيس Apis أو الرعد أو المسيح ، أو ظلك كما يفعل الزنجي في شواطىء غينيا ، أو عبدت روحك كما يفعل الفارسي القديم وباختصار سواء عبدت شيئاً محسوساً أو روحياً فإن الامر سواء لأن هناك شيئاً ما وهو موضوع الدين بقدر ما هو موضوع الخيال والاحساس كما هو موضوع الأيمان ؛ وذلك فقط لأن موضوع الدين ، كما هو بذاته لا يوجد في الحقيقة أو في الواقع ، ولكنه يناقض الدين (الأخير) ولهذا السبب فهو ليس إلا موضوع الإيمان . ولذلك فإن الإنسان أو الانسان الخالد يعد موضوعاً للدين ، ولهذا السبب أيضاً هو موضوع للإيمان لأن الحقيقة تظهر عكس ذلك ، تظهر أن الانسان فان . أن تؤمن معناه أن تتخيل أن هناك شيئاً موجوداً وهو غير موجود في الواقع ، أي أن تتخيل أن صورة ما نبعت فيها الحياة ، أو أن هذا الخبز لحم والدم خمر ، أي تعطى له صفات ليست فيه . ولذلك فإن أي دين مهما كانت عظمته يخفق إذا أردت أن تجد الله أو أن تبحث عن الله في الفلك عن طريق التلسكوب ، أو بعدسة مكبرة في حديقة واسعة ، أو تبحث عنه في طبقات الارض أو تبحث عنه بمشرط التشريح أو الميكروسكوب في أحشاء الحيوان أو الإنسان ولكنك تجده فقط في إيمان الإنسان ، في خياله ، وعقله وقلبه لأن الله بنفسه ليس شيئاً سوى جوهر خيال الإنسان وقلبه .

(55)

« مثل قلبك يكون الهك » تماماً في تشبه رغبـات البشر آلهتهم . وكون أن الاغريق لم يكن لديهم سوى آلهة محدودة فإن هذا يدلنا : على أن رغباتهم أيضاً محدودة . لم يكن الاغريق يرغبون ان يحيوا الى الأبد ولكنهم كانوا يرغبون فقط ألا يكبروا ويموتوا - ولم يرغبوا أبداً في ألا يموتوا ولكنهم كانوا لا يرغبون ان يموتوا كفي وقت ما لاعتقادهم بأن المصاعب تأتي إلى الإنسان بسرعة ليس فقط في ريعـان شبابـه وليس بسبب الموت[26] . ولم يرغب الاغريق أن ينقذوا من الآخر ولكنهم كانوا يرغبون أن يعيشوا سعداء دون مشكلة أو ألم ولـم يغنـوا كمـا كان يغني المسيحيين لانهم كانوا معرضـين لحاجـة الطبيعـة وللرغبات والغـرائز الجنسية كالنوم والاكل والشراب وكانوا يخضعـون في أمانيهم لحـدود الطبيعة الإنسانية إذا لم يكونوا بعد خالقين من عدم ، فلم يكونوا بعد قادرين على استخراج الخمر من المياه ولكنهم نقوا مياه الطبيعة وكثفوها وغيروها بطريقة عضوية إلى دم الالهة واشتقوا محتويات الحياة السماوية ليس من مجرد الخيال وإنما من مواد العالم الحقيقي الواعي وشيدوا جنة الالهة على الارض .

---

(26) لذلك فإنه في الوقت الذي يمكن أن يموت فيه الإنسان في جنة المتعصبين من المسيحيين ولا يموت إذا لم يخطىء ، مات عند الاغريق حتى في العصر المبارك لكرونوس ولكن الموت كان سهلاً كالنوم . تتحقق الامنية الطبيعية للإنسان في هذه الفكرة فالإنسان لا يرغب أن يحيا حياة أبدية إنما يرغب في حياة طويله قوامها الصحة العقلية والجسدية وموت بلا الم يتفق وطبيعة البشر والاستسلام للاعتقاد بالخلود لا يتطلب شيئاً سوى استسلام غير إنساني يتسم بقدرة كبيرة على التحمل وهو لا يتطلب شيئاً سوى الاقتناع بان مبادىء المسيحية مبنية فقط على أماني خارقة وغريبة فقط وان يرجع الى الطبيعة الحقيقية البسيطة للانسان .

فهرست

1991/ 4/ 384

هذا الكتاب

قدمت إلى المكتبة العربية دراسة عن فلسفة فيورباخ، وأعلنت عن اهتمامي بتقديم نصوص هذا الفيلسوف - الذي اشتعل وأشعل حماس معاصريه ولاحقيه - إلى العربية، فربما ينقلنا نهر النار من القوة إلى الفعل بلغة واصطلاحات أرسطو كما نقل الفكر المعاصر من فلسفة هيجل إلى فلسفة المستقبل. وتلك مهمة جيلنا بأكمله، مهمة التحول والانتقال مما نحن فيه إلى ما نصبو إليه من اللغة والتفكير القديم إلى لغة وتفكير حديث، إلى لغة وفكر إنساني يستجيب لمتطلبات الإنسان.

وقد شرعت في تقديم هذه النصوص الفيورباخية في إطار تقديم فيورباخ إلى العربية فمن حق فيلسوف المستقبل أن يجد مكانا في ثقافتنا التي ما زالت تحيا على فلسفة القدماء.

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع